مطبوعات كتابي



الطريق إلى بئر سبع

الرواية التى سيقرأها العالم عام ١٩٦٤ عن مآسى حرب فلسطين



الترجمة الكاملة لأحدث وأروع
قصة طويلة عن مأساة
خروج العرب من ديارهم!
للروائية الإنجليزية المعاصرة

إيثيل مانين

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

رئيس التحرير : حلمى مراد

الكتاب الثانى والسبعون

الطريق إلى بئر سبع

ترجمة : الدكتور نظمى لوقا

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — القاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦ ، ٤٦٤٧٥

مطابع منكور وأولاده

هاتان السلسلتان .. فى عهدهما الجديد

عزيزى القارىء ..

فى مستهل هذه المرحلة الجديدة من حياة (كتابى) و (مطبوعات كتابى) – السلسلتين اللتين حبوتهما بحبك واعزازك منذ اللحظة الأولى لصدورهما ، حتى اليوم ، طوال اثنى عشر عاما – أرى من حقك على ان نتبادل معا حديثا « من القلب الى القلب » ، كما ألفنا ان نتبادل فى كل مناسبة سابقة ..

والمناسبة أو « البشرى » الجديدة التى أود أن أزفها اليك – والى نفسى فى الوقت عينه – هو أن أمنية قديمة من أمانى قد آن لها أخيرا أن تتحقق .. والأمنية التى أعنيها ، والتى طالما تمنيتها ، هى أن أتخفف من أحد العبئين الثقيلين اللذين أخذتهما على عاتقى – مضطرا – منذ أصدرت العدد الأول من (كتابى) فى مارس عام ١٩٥٢ .. وهما : **أولا** ، عبء مسئوليتى كناشر للسلسلتين (بكل ما تحمل عملية النشر فى ذاتها من متاعب ، وهموم ، وأعباء ادارية والتزامات مالية وحسابية .. ومشكلات طباعة ، وورق ، وحبر ، وتسويق ، وتوزيع .. الى آخر هذه الدوامة الرهيبة !) .. **وثانيا** : عبء مسئوليتى عن تحرير السلسلتين ، (بكل ما تحمله عملية التحرير من مهام حبيبة الى نفسى ، وتحليق فى آفاق الفكر والثقافات والفنون .. ومعاناة لمشكلات الحرص على أمانة الترجمة وسلامة التلخيص وجمال الأسلوب .. ألخ) .

ولا أكتمك اننى لم أقدم على الاضطلاع بكلا العبئين ، حين أصدرت (كتابى) ، الا لأننى لم أجد الناشر الذواقة الذى يؤمن بفكرتى ويولى المشروع ثقتـه ويطمئن الى نجـاحه ، فيقـدم على اخراجـه الى حيز التنفيـذ •• فكأن أن اضطررت الى تنفيذه بمفردى ، وقد جرف ايمـانى ترددى ، وغلبتنى حماستى له على أمرى ••

كما لا أكتمك اننى قد طالما شقيت بهذين العبئين اللذين أثقلا كاهلى طوال هـذه الأعوام الاثنى عشر •• وفى الوقت الذى كانت فيه دوائر الصحافة والأدب فى العالم العـربى تتجاوب بأصـداء نجاح (كتابى) و (مطبوعاته) كنت أنا أتجرع غصص التعاسة والألم ، والرثاء لنفسى من أجـل المصير الذى انتهيت اليه ، و (السـاقية) التى وجدتنى مشدودا اليها ، مسئولا عن دورانهـا المستمر بلا توقف ، كالثور المعصوب العينين ••

•• وكلما ضقت بتعـاستى ، تأججت بين جوانحى نيران الثورة على نفسى وعلى الوضع الشـاذ الذى وجدتنى أسيرا له •• وضع « الكاتب » الذى يعمـل « ناشرا » ، والأديب الذى يقضى أيامه ويفنى حيـاته فى مواجهة مشكلات الادارة والطبـاعة ، والحبر والورق ، والفواتير والحسـابات •• والعياذ بالله !

•• واشتقت الى أن أكون أديبا وكاتبـا ، وحسب ! •• أقرأ ، مستمتعا بالقراءة •• وأكتب ، مستمتعا بالكتـابة •• كما بدأت •• وكما هى طبيعتى ، ومزاجى ، وحلم حياتى !•• اشتقت الى ذلك شوقا كاد يغرينى بأن أحطم كل عائق يقف بينى وبين حلمى العتيد ، ولو كان هذا العائق (كتابى) ! !

•• وحين كان حنقى على نفسى يقهـرنى ، واحسـاسى بالارهاق يسول لى أن أتوقف عن اصدار كتـابى !! •• أو يحملنى على الأقل على التراخى فى اصداره بانتظام ، كى

أتحرر بعض الوقت من « الأسر » ، وأستريح من جر الساقية والدوران حولها كالثور ، معصوب العينين ٠٠ فأستمتع بقراءاتى المحببة ، فى غفلة من سوط الجلاد الذى يلهب ظهرى ٠٠ كانت صيحاتك تلاحقنى : كتابى يجب أن يستمر ٠٠ كتابى يجب أن يصدر بانتظام ٠٠ فكنت أرضخ لمشيئتك ، وينسينى اشفاقى على (كتابى) ، اشفاقى على نفسى ٠٠ فأستسلم لمصيرى ، وأمضى فى طريقى ، كاسف البال ٠٠

٠٠ **حتى سنحت فرصة لمست فيها من الوزير الانسان ، راعى الثقافة والآداب والفنون ، الدكتور محمد عبد القادر حاتم ، غيرة — مشكورة — على كتابى ومطبوعاته ، وقلقا — لا أدرى كيف أصفه — من أجل عدم انتظامهما ، وتقديرا كريما للرسالة التى يستهدفانها ٠٠ وترحيبا — يثلج صدرى — بأن تتولى « مؤسسة الأنباء والنشر » عنى عبء اصدار السلسلتين اللتين أفنت متاعبهما زهرة عمرى ، والتهمتا خير سنوات حياتى ٠٠** فتعلقت مرحبا بطوق النجاة ، وداعبنى — من جديد — الأمل فى أن أعود كاتبا ، وأديبا ، وحسب ٠٠ أحلق فى دنيا الأدب ، والفكر ، والفن ، كالنحلة ، لأجمع لك من كل زهرة من أزهار المعرفة رحيقها العذب ٠٠ ومن كل نبع من ينابيع الثقافة قطرات وقطرات ٠٠

ولست أزعم أننى قد تخففت — بعد — من الأعباء « المزدوجة » التى أرهقتنى ، فليس ذلك بالأمر اليسير ، سيما فى البداية ٠٠ كما لا أزعم أن العدد الأول الذى بين يديك يرضينى ، أو يرضيك — فان أحلامى لكتابى لا تقف عند حد — وانما هو مجرد ايذان بالعودة ٠٠ عودة العجلة الى الدوران ٠٠ وما هو الا بداية لأعداد متلاحقة أرجو أن يتفوق كل عدد منها على سابقه ٠٠ وكلما أتاحت لى الظروف أن أتخفف

من قدر من الأعباء الادارية ، استطعت أن أعطى التحـــرير قدرا أكبر من الجهد ، ومن الوقت ، ومن الأعصاب ..

فاذا أسعدتك – أيها القارىء العزيز – عودة (كتـابى) و (مطبوعات كتابى) الى الصدور والانتظام ، **فلتكن غبطتك بعودتهما دينا فى عنقك للوزير الذى فتح للثقافة فى بلادنا آفاقا جديدة ، تتنفس فيها ، وتزدهر ، وتترعرع .. وماعليك الا أن تتوجه بالشكر العميق ، النابع من القلب ، للدكتــور محمد عبد القادر حاتم ، الذى أتاح لكتابى ومطبوعاته مواصلة رسالتهما الثقافية التى آمن بها ، فرعاها .. فجاءت هــذه الرعاية حلقة جديدة من حلقات عمله الدائب لتحقيق « الثورة الثقافية » التى ينادى بها فى كل مناسبة قائد ثورتنا المباركة الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر ..**

« الثورة الثقافية » التى خلقت مفاهيم جديدة لدور الدولة فى رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وجعلت من وزارة الثقافة لواء ضخما يستظل به جميع العاملين فى حقول المعرفة ، سواء عن طريق أجهزة الوزارة ذاتهـا ، أو عن طريق مؤسساتها العامة ، وفى مقدمتها المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة ، التى أخذت على عاتقها مهمة ضخمة هى اصدار كتاب جديد كل ٦ ساعات ، وقطعت فى هذا السبيل شوطا بعيد المدى ، ملموس الأثر .

وفى ظل هذه المفاهيم الجديدة ، لنسر معا أيها القـارىء العزيز على بركة الله .

والله ولى التوفيق ؟

حلمى مراد

المؤلفة .. فى سطور



* « ايثيل مانين » ـ مؤلفة هذه القصة الشائقة ـ روائية انجليزية معاصرة ، من أصل ايرلندى ، ولدت فى لندن عام ١٩٠٠ .. وهى تعتبر « عصامية » ، ثقفت نفسها بنفسها ـ اذ اضطرتها الظروف الى ترك المدرسة فى سن الرابعة عشرة ، وبدأت حياتها العملية فى الخامسة عشرة ، ككاتبة اختزال فى وكالة للاعلانات .

* ثم تدرجت فى العمل حتى صارت ـ فى سن ١٧ سنة ـ مساعدة لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذى بليكان) .

* وفى سن الثانية والعشرين ، كتبت روايتها الطويلة الأولى ، ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة .

* ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام ، بانتظام .. كما ألفت عدة كتب فى أدب الرحلات ، وصفت فيها سياحاتها فى كل من (بورما ، الهند ، روسيا ، المغرب ، مقاطعة بريتانى (بفرنسا) ، اليابان ، ثم الشرق الأوسط) ..

وقد ترجمت كتبها الى اللغات : الفرنسية ، الالمانية ، الهولندية ،الاسبانية ، الايطالية السكندنافية

* وهذه القصة الممتعة التى صورت فيها مأساة العدوان الصهيونى الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨ ، هى أحدث رواياتها ، وقد صدرت فى لندن منذ شهر واحد ، ولم تترجم بعد الى أية لغة ، سوى ترجمتها هذه الى العربية .

اهداء الكتاب

الى اللاجئين الفلسطينيين ومن اجلهم .

اولئك الذين قالوا لى فى كل الأقطار العربية التى استضافتهم :

— لماذا لا تكتبين قصتنا نحن ، قصة الخروج الآخر ... خروجنا نحن ؟ !

المؤلفة

« واعطيتكم ارضا لم تتعبوا عليها ومدنا لم تبنوها وتسكنون بها ، ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون » .

يشوع : ٢٤ : ١٣

مقدمة المؤلفة

لا بد من ايضاح .

حتى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ كان ثمة بلد يسمى فلسطين ، هو الوطن العتيق للفلسطينيين القدامى ، وهو بلد عربى الصبغة بصورة واضحة . **وحين صدر اعلان « بلفور » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ مؤذنا بان الحكومة البريطانية تؤيد « قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين » كانت غالبية السكان هناك من العرب ، بنسبة تزيد على ٩٠٪ . وكان فى فلسطين فى ذلك الوقت نحو ٥٠,٠٠٠ يهودى . أما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم وقتئذ نحو ٦٧٠,٠٠٠** . ولكن فى سنة ١٩١٥ كان السير « هربرت صمويل » اليهودى والصهيونى البارز قد نادى فى مذكرة بعنوان « مستقبل فلسطين » بهجرة ثلاثة أو اربعة ملايين من اليهود الى فلسطين تحت الحماية البريطانية . فوضحت من ذلك المطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها ، وثبت أن ما يرمون اليه ليس انشاء موطن قومى وملاذ لضحايا الاضطهاد من اليهود فى مختلف البلدان ، بل الهدف الحقيقى هو اقامة دولة يهودية مستكملة الأركان !

ولما صدر اعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا ، واجه واقعا أقل من ذلك بكثير ، فكان الحل البديهي فى نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية الى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية . وفى سنة ١٩١٩ اصدر الدكتور « وايزمان » الزعيم الصهيونى وقتئذ تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغى أن تغدو « يهودية مثلما تعتبر انجلترا انجليزية » .

وفى سنة ١٩٢٠ تجسم اعلان بلفور فى صورة الانتداب الانجليزى على فلسطين . وكان العرب حين قاتلوا فى صف الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك قد اعتقدوا أنهم انما يحاربون فى سبيل استقلالهم . فاذا بهم ينكبون بالانتداب الانجليزى والفرنسى بدلا من نيل استقلالهم . وبذلت محاولة للتحكم فى الهجرة اليهودية ، ولكن الهجرة غير المشروعة ظلت فى ازدياد عن طريق مكتب للجوازات المزورة فى برلين ، فازدادت عداوة العرب ، ووقع شغب وحدثت اضطرابات وفرضت أحكام عرفية واستمر الكفاح الوطنى للحصول على الاستقلال .

وعند نشوب الحرب العالمية الثانية لم يكن الوطن القومى لليهود قد تحقق فى صورة ذاتية ، ولكن تعداد اليهود كان قد قفز من ٥٠٫٠٠٠ الى ٦٠٠٫٠٠٠ ، وكانت حكومة الانتداب قد منحت اليهود سيطرة متزايدة على مقدرات البلد الاقتصادية . وكانت الصناعات الصهيونية تتمتع بحماية الحكومة ، فى حين كانت القرى العربية تدمر لتفسح المجال للمستعمرات الصهيونية . وصار لليهود مستشفياتهم ومدارسهم ومنظماتهم السياسية ، وتمتعوا بمعاملة متحيزة من حماتهم البريطانيين .

وكما كانت الحرب العالمية الأولى سببا فى اعاقة المطامع الصهيونية ، كذلك عاقت الحرب العالمية الثانية الآمال العربية

الوطنية ، وثبت ان الاضطهاد النازى لليهود فى المانيا كان سندا قويا للصهيونية .. فتألفت لجنة انجليزية امريكية — ثلاثة من بين اعضائها الستة من غلاة الصهيونية — زارت فلسطين فى سنة ١٩٤٦ وأوصت فى تقريرها بادخال مائة الف يهودى فورا الى فلسطين ، وقد استعجل الرئيس (الدمية) ترومان تنفيذ ذلك ، مع ترك الباب مفتوحا لمزيد من التهجير مستقبلا !.

ولما لم يصل مؤتمر فلسطين المنعقد فى لندن فى سنتى ١٩٤٦، ١٩٤٧ الى اتفاق ، لأن ممثلى العرب فى ذلك المؤتمر طالبوا بقيام دولة عربية ديمقراطية مستقلة فى فلسطين ، احيلت « مسالة فلسطين » الى الأمم المتحدة ، وخصصت دورة غير عادية للفصل فيها . وتحت الضغط الصهيونى الذى تؤيده الولايات المتحدة ، أوصت اللجنة الخاصة التى الفتها الأمم المتحدة لشئون فلسطين بتقسيم ذلك البلد .

وفى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قامت الجمعية العمومية بمنظمة الأمم المتحدة المنعقدة فى واشنطن باقرار تقسيم فلسطين ، باغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت . وكانت بريطانيا من الدول الممتنعة عن التصويت . ونجد فى مذكرة ترومان كلاما عن الضغط الصهيونى وعن « التكتيك » الذى استخدم للحصول على هذه الأغلبية الساحقة ، اذ كتب يقول :

« لم تكن ثمة حركات للضغط على الولايات المتحدة لم يسبق لهـــا مثيل من قبل فحسب ، بل ان البيت الأبيض ايضا كان هدفا لنيران متصلة من الضغط . فلست اعتقد ان البيت الأبيض تعرض لقدر من الضغط والدعاية كالذى تعرض له فى هذه المناسبة . وقد ازعجنى وضايقنى الحاح بضعة من زعمـــاء الصهيونية المتطرفين ، مدفوعين بعوامل سياسية ومستخدمين تهديدات سياسية . بل ان بعضهم قد وصل به الأمر الى ان اقترح علينا الضغط على الدول الكبرى كى تصوت فى صالحهم

عند انعقاد الجمعية العامة . »

وكذلك صرح « روبرت لوفيت » نائب وزير الخارجية بأنه لم يتعرض فى حياته اطلاقا لكل ذلك الضغط الذى وجه اليه اثناء المراحل النهائية للتصويت .

وخطة التقسيم التى اقرتها منظمة الأمم المتحدة اعطت ٦٠٪ من فلسطين ــ بما فى ذلك اخصب المناطق ــ لثلث السكان وهم اليهود . اما المليون فلسطينى وهم كل سكانها تقريبا فقد انتزعوا من مواطنهم وجردوا من املاكهم خلال الحرب التى نشبت بين العرب واليهود على اثر ذلك القرار . وكل ما تبقى من ارض فلسطين العربية على الضفة الغربية لنهر الأردن ضم الى شرق الأردن على الضفة الشرقية من ذلك النهر . وبذلك قامت المملكة الهاشمية الأردنية . والشريط الضيق المتاخم لساحل البحر الابيض والبالغ طوله ٢٥ ميلا وعرضه ٥ اميال ، (وهو كل ما تبقى من ولاية غزة ، احدى ولايات فلسطين الحرة) ، قامت مصر بادارته ، وقد منح الرئيس ناصر فى سنة ١٩٦٢ تلك المنطقة دستورا للحكم . ولا تزيد هذه المنطقة على ان تكون معسكرا فسيحا للاجئين .

ومن بين المليون من الفلسطينيين على وجه التقريب الذين فروا من بلادهم نتيجة للارهاب الاسرائيلى ــ الذى من امثلته مذبحة (دير ياسين) فى ابريل سنة ١٩٤٨ ــ او الذين طردوا من بيوتهم ــ (الأمر الذى ينكره الصهيونيون رغم الأدلة الدامغة) ــ من هؤلاء المليون **يعيش أكثر من نصف مليون فى اسوا حال بتلك المعسكرات التى تمدها الأمم المتحدة بالمعونة منذ اواخر سنة ١٩٤٩ . امـا الباقون فقد استوعبتهم بلاد مضيافة . ولكن هؤلاء وهؤلاء جميعا يطالبون باستعادة وطنهم لاعادة اسكانهم . وما من واحد منهم ، سواء فى المعسكرات او فى خارجها ، تلقى « بنسا » واحدا على سبيل التعويض**

عن بيوتهم واراضيهم واموالهم التى استولى عليها الاسرائيليون!

وفى كل عام تعيد الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة تأكيداتها لحقوق عرب فلسطين اللاجئين فى العودة الى بلادهم . او فى التعويض الكامل اذا لم يرغب احد منهم فى العودة الى حيث سيكون مواطنا من الدرجة الثانية فى دولة يهودية . ولكن هذه القرارات لا توضع قط موضع التنفيذ . بل ان مسز جولدا مايير وزيرة الخارجية الاسرائيلية اعلنت على النقيض من ذلك بصورة قاطعة ان « سياستنا لم تتغير . فنحن لن نقبل لاجئا واحــدا ! »

ولقد قسمت بلاد اخرى ولكنها بقيت بعد التقسيم محتفظة بكيانها ولها وجودها ومسمياتها على الخرائط ويسكنها اهاليها. اما فلسطين فقد انقطع وجودها من حيث هى اسم ومن حيث هى بلد . وانقطع كذلك وجود الفلسطينيين من حيث هم امة.

انه عصر التشتت الفلسطينى .

الكتـــاب الأول

الخروج

— ١ —

كانت درجة الحرارة فى السهل الساحلى اكثر من مائة درجة فهرنهيت فى الظل — ذلك الظل الهزيل الذى تلقيـه اشجار الزيتون ، او ظل الصخور الأحمر . فلولا ضـغط الارهاب لما استطاع احد ان يسير فى تلك الحرارة فوق تلك الأرض . فالكتائب الاسرائيلية تطرد الناس بعيدا عن الطرق ليوغلوا فى البرية بين التلال الجرداء التى لا نهاية لهـا .

والأرض رملية لا تطيق القدم العارية ان تمسهـا . ارض قوامها الرمال والصخور والحصى الرمادى والحسك . انها ارض متموجة تنتهى الى تلال متتابعة لا تلبث ان تذوب فى سماء استنزفت الحرارة كل ما فيها من الألوان . فالمنظر فسيح يمتد الى ما لانهاية فى جميع الاتجاهات . وبرية الأردن الواسعة تغص الآن باناس معظمهم من النساء والأطفال كأنهم الجيش المشتت يتعثر فوق الصخور ويشق له طريقا بين الحصى ، يرتقى الروابى الرملية فى اعياء وقد استنزف جهده العرق ، يسقط ليقوم ويقوم ليسقط مرة اخرى . والنساء محتضنات اطفالهن يسحبن العجائز ، والعجـائز يتهاوون على الأرض فيعجزون عن النهوض . ولكن الجموع الزاحفة لا تكف مع

ذلك عن التقدم ، يستحث خطاها الخوف ، تحت وهج للشمس يعمى الأبصار . يتقدمون بين الصخور لأنهم ان لم يتقدموا قضى عليهم بالموت من ضربة الشمس او من العطش او من الاعيـاء !

وهم يشعرون على الدوام بالخوف من تلك الطائرات المدنية السوداء الصغيرة التى تطير على انخفاض شديد بحيث يستطيع المرء ان يرى من فيها من الرجال ، تحوم فوق رؤوسهم كأنهـا الطيور الجارحة ، على نحو ما حدث فى الليل .. فى تلك الليلة الأخيرة المروعة فى (اللد) .

لقد ظل « انطون منصور » يتذكر الى امد طويل صوت تلك الطائرات الغريب ، وانه لصوت يختلف عن صوت اى طائرة اخرى . ويذكر الخوف الذى اثارته ، وانه لخوف يختلف عن اى خوف عرفه فى سنوات عمره الاثنتى عشرة . ان شيئـا فى رأسه بدا له انه ينفجر مع ذلك الصوت ، ثم تدفق الدم بلا انقطاع من انفه . وفى البداية توقفت أمه عن السير وحاولت ان توقف النزيف . ولكن بعد قليل لم تبق لديها بقية من الطاقة فالتفتت برأسها وتطلعت اليه ولم تستطع ان تتكلم . فلم يكن احد ينظر الى احد او يكلم احدا او يصنع شيئا لأحد . لأنه لم يبق لدى احد منهم سوى الاصرار على الحياة ومقاومة الموت الذى تفرضه عليهم الحرارة الشديدة والاعياء والظمأ المهلك . فليس هناك مجال للتفكير ، بل المجال كله للخوف . ولا مجال للعاطفـة ، بل المجال كله للتعاسة .

وكان « انطون » يتلفت بين الحين والحين لينظر الى امـه كى يتأكد انها لم تزل هناك . فمن السهل ان يفقد المرء اى احد فى ذلك الحشد من الزحام . وثمة اطفال يتخبطون بين الحصى وهم يصرخون لأنهم فقدوا ذويهم وما من احد يلقى باله اليهم . فاذا تعلقوا بأحد باكين منتحبين دفعهم بعيدا عنه .

حتى النساء كن ينظرن اليهم من غير شفقة . ورأى انطون وهو فى شبه دوار امرأة تلقى فجأة بالطفل الذى كانت تحمله الى بطن حفرة حيث استقر صارخا . ومضت المرأة فى طريقها قدما . فالجميع يسيرون الى الأمام والشمس تنهال عليهم بشواظها تريد أن تقتلهم ، والطائرات السوداء تحوم كالصقور تتربص الفرصة للانقضاض من السماء التى صهرتها الحرارة ، والأرض التى لا ترحم ولا تلين تعكس ما تتلقاه من حرارة الشمس وتصليهم به فى وحشية .

كان الجميع فى طريقهم الى المدينة الجبلية الصغيرة (رام الله) ، التى تبعد بضعة أميال عن القدس . ولكنهم وقد ابعدوا عن الطريق وطوح بهم الى جوف البرية لم يعودوا يبصرون طريقهم ، وكان أقلية من صغار السن هم الذين يدركون الاتجاه الصحيح ، اما البقية فكانوا يسيرون صوب الشرق خبط عشواء . فكل ما يعنيهم أن (اللد) ينبغى ان تكون من خلفهم . (اللد) التى رددت شوارعها هذا الصباح أصداء مكبرات الصوت التى اذاع بها الاسرائيليون المنتصرون اوامرهم الى السكان :

— اخرجوا ! اذهبوا الى الملك عبد الله !

ومع أنطون كان يسير غلام اعمى اكبر منه سنا بقليل هو ابن خادم ضيعة ابيه . كانا يمشيان ويد انطون اليمنى قابضة على يد (أمين) اليسرى . ويداهما معا مرفوعتان الى كتف انطون بحيث يظل الغلام الأعمى ملتصقا به . وقلما كانا يتحدثان . ولا كان أحد منهما يشكو او يتذمر .

اما «بطرس منصور» — والد انطون — فكان يسير مع اخيه فريد ، وكلاهما من ذوى الوزن الثقيل ، لم يألفا السير اكثر من بضع خطوات الى سيارتيهما ، فلقد كانا من اهل الثراء ، وكانت حياتهما على الدوام سهلة هينة ، من الناحية المادية

على الأقل . ومن ورائهما سارت زوجتاهما : «ماريان» زوجة بطرس الانجليزية ، و « ماجدة » زوجة فريد ، وابنتها الكبرى نادية . والى جوارهن كان طفلا نادية الصغيران يتعثران ويبكيان ويشكوان بلا انقطاع من التعب والعطش . وكانت شفاههما قد ابيضت كأنما عليها طبقة من الملح . فكانت ماريان وسلفتها تتناوبان حملهما على فترات قصيرة وهما تترنحان وتتعثران فوق الأرض الصلدة . أما نادية فكانت تمشي خافضة الرأس غير مكترثة بعذابهما ، منطوية على جحيمها الخاص . ولكم تمنت لو كانت مسلمة كي يتسنى لها أن تخفى وجهها خلف نقاب .

منذ بضعة ايام احدقت الكتائب اليهودية بالرجال من جميع الأعمار واعتقلوهم فى مسجدى المدينة ، وكان زوجها «نصرى» من بينهم ، وكذلك أبوها واعمامها واخوالها وابناء العم والخال واخوتها . وبالأمس اطلق سراح اولئك الرجال ولكن نصرى لم يكن بين من أطلق سراحهم ، لأن جميع من هم فى سن التجنيد قد ارسلوا الى معسكر للاعتقال . هذا بالنسبة لمن كانوا فى المسجد الكبير . أما الثلاثمائة رجل الذين كانوا معتقلين فى المسجد الصغير فلم يفرج عن أى واحد منهم اذ حدث منهم شغب صغير اخمد بنيران المدافع الرشاشة . وتقرر عدم الافراج عن أحد منهم اطلاقا .

وفى البداية كان من رأى جميع الرجال المقيمين فى دار منصور التوجه الى المسجد الصغير لأنه اقرب الى الدار ، وبذلك يتحاشون اختراق المدينة والتحرش بالجنود الاسرائيليين من الجنسين . وكان منظر النساء المجندات غريبا وهن يحملن مدافع شتين وقد ارتدين سراويل قصيرة تكشف عن أفخاذهن البضة العارية . ولكن منصور عارض فكرة الذهاب الى الجامع الصغير قائلا ان الأفضل الذهاب الى الجامع الكبير والبقاء

هناك قرب الأبواب ، لأن اشاعة كانت قد سرت بين الناس مؤداها أن ثلاث سيارات مسلحة تابعة للفيلق العربى ظهرت على مشارف المدينة ، ومن المؤكد ان هذه السيارات ستتلوها قوات مسلحة من ذلك الفيلق . وسيكون الجامع الكبير أول مكان يحررونه . ولما كان بطرس رأس الأسرة فقد اصغى الجميع لكلامه باحترام وذهبوا عن بكرة أبيهم فى صحبته الى الجامع الكبير .

وقبل عودة الرجال حضر جنديان اسرائيليان الى « دارة الخير » — وهو اسم دار منصور — فى طلب الماء . ومن وراء قضبان نافذة فى الطابق الأول استرقت النظر اليهما نادية وخادمة تدعى « رندا » تقوم برعاية شئون الطفلين ، ومعهما بضع نساء اخريات ، فانتابهن فزع شديد ، بيد ان نادية وجدت فى نفسها الشجاعة كى تصيح بالجنديين :

— ماذا تريدان ؟

ونظر الجنديان الشابان الى فوق وضحكا . ثم أجاب احدهما بلغة عربية ركيكة :

— لا تخفن . نحن من « الهاجاناه » ولسنا من «شتيرن» . لا نريد شيئا سوى الماء . الحر شديد ونحن ظمآنان . تعطفن علينا !

وقال شيئا للجندى الآخر الذى ضحك ثم انزل الاثنان مدفعى (شتين) عن كتفيهما واسنداهما الى جذع شجرة جزورينا فى مواجهة مدخل الدار ، ثم التفت الجندى الذى كان قد طلب الماء صوب النافذة ، وقال :

— ها انتن ترين . لسنا مسلحين !

وكان شابا وسيما ذا ابتسامة صافية كابتسامة الأطفال . ولم ترد نادية على ابتسامته بابتسامة ، ولكنها قالت : « سأرسل اليكما بماء » .. وامرت خادمتها « رندا » بأن

تحمل اليهما ابريقا من الماء المثلوج ، فقالت ماريان للخادمة فجأة :

— خذى المـاء فى ابريق من الأباريق البللورية الفاخرة . وخذى ايضا كوبين من البللور . يجب ان نريهما اننا شعب متحضر ! لو كان بطرس هنا لكانت هذه مشيئته . فهما على كل حال ضيفانا .

فاحتجت نادية قائلة :

— **ولكنهما من الأعـداء !**

— الا أنهما استضافا نفسيهما فى دارنا . ثم هما شخصان تبدو عليهما أمارات المودة .

وذهبت رندا فأحضرت المـاء المثلوج فى ابريق من البللور ووضعت الى جواره كأسين من البللور فوق صينية من الفضة ، ونزلت حافية القدمين فوق السلم الرخامى العريض ثم اجتازت بهو المدخل المرصوف بالفسيفساء الى الباب الأمامى . وعندما فتحت الباب كان الجنديان جالسين على سياج شرفة المدخل المنخفض ، فأشارت لهما الى الصينيـة التى وضعتها على منضدة داخل الباب مباشرة ، فوجه اليهـا الجندى الذى كان قد طلب المـاء كلمات الشكر باللغة العربية . أما الآخر فتقدم الى الأمام وقال لهـا بلغة انجليزية « خنفاء » :

— هالو أيتها الحسناء ! اتتكلمين الانجليزية ؟

وكانت رندا فى الواقع تتكلم شيئا من الانجليزية ، التى تعلمتها وهى فى خدمة آل منصور ، فهزت رأسها . وقال لها الآخر ، عن زميله :

— انه لبنانى أمريكى ولا يعرف العربية كثيرا .

ثم صب كأسا من المـاء وتجرعها وصب كأسـا أخرى . اما زميله فشرب نصف كأس من المـاء ثم طوح بالكأس الى الأرض فتطايرت شظايا البللور فى كل اتجاه وراح يضحك فى

عصبية وهو يقول :

— اننا نصنع ذلك فى حفلات الزفاف اليهودية . فهو عمل رمزى !

ولم تفهم رندا ما قال ، ولكنها أجفلت متراجعة الى الوراء ، وقد افزعتها لهجته وهيئته ، مستاءة لتحطيم الكأس الثمينة . فمد يديه وقبض على معصمها وجذبها اليه قائلا :

— هيا يا حسناء . هيا بنا نحتفل بالزفاف !

فصرخت الفتـــاة وناضلته بعنف ، الا انه كانت ثمة حجرة للاستقبال يفضى اليهـــا باب فى البهو فجذبها الى داخل تلك الحجرة واغلق دونهما الأبواب . وضحك الجندى الآخر وصب لنفسه مزيدا من المـــاء .

واتت صرخات رندا بنادية وماريان والنساء الأخريات الى رأس السلم .. بينما صاحت ماريان الانجليزية فى حدة :

— ما الخبر ؟ ما الذى يحدث ؟ أين الخادمة ؟

فضحك الجنـــدى ثم قال :

— انها بسبيلها الى فقد بكارتها كما يبدو من صوتها !

وكانت ماريان قـــد اندفعت تنزل السلالم فى غضب أعمى ، وتبعتها نادية . وكان الجندى الآخر فى الانتظار عند نهـــاية السلالم فأطبقت ذراعاه حول نادية بمجرد نزولها . وضحك ضحكة النصر اذ وجدها تناضل وتصرخ وترفس ، وقد تسمرت ذراعاها الى جانبيها ، وكانت قبضته فى منتهى الشدة ، فرفعها مدى الخطوات القليـــلة عبر البهو الى الحجرة ، والتفت من فوق ظهره عندما وضع يده على مقبض الباب وقال لمـــاريان :

— كل شىء على ما يرام يا أماه . فى وسعك ان تنصرفى !

وبعد ذلك صفق الباب فى وجه ماريان .. وادير مفتاح فى قفله .. وارتفعت صرخات نادية وصيحاتهـــا فطغت على نحيبهـــا !

* * *

كانت رندا تسير بتثاقل ومشقة خلف نادية والمرأة الانجليزية . وكانت تمشى معها خادمات أخر ممن يعملن فى دار منصور وضيعته ، وأناس متباينون ممن اووا الى تلك الضيعة فى الأيام والليالى القلائل الأخيرة — ولقد بلغ عدد من لاذوا فى النهاية بذلك البيت الكبير العريق المسمى (دارة الخير) الى أن اعتقل الرجال ، قرابة مائة شخص ..

وكانت الفتاة تعانى من الصدمة وينتابها الدوار وهى سائرة أشبه بحيوان مصعوق ، غارقة فى تعاستها الى درجة لا يمكن ان تشعر معها حتى بالحر او العطش ، وقد استحوذ عليها الرعب الى درجة تعجز معها عن الشعور حتى بالخوف .

وكانت المرأة الانجليزية فريسة مثلها للرعب . فباعتبارها سيدة الدار كان فى وسعها أن تلغى امر نادية الى رندا بانزال الماء الى هذين الجنديين اليهوديين . كان فى وسعها أن تمنع ذلك وأن تبقى الدار مغلقة الأبواب فى وجهيهما .. اجل ، كانا حريين فى هذه الحالة ولا شك أن ينسفا قفل الباب بالرصاص ويقتحما الدار . ولكن فى تلك الحالة على الأقل ، حتى لو تم اغتصاب نادية ورندا ، لم تكن لتلحقها شخصيا أية مسئولية ادبية مما تشعر بوطأتها الآن على كاهلها . ولقد عاد بطرس بعدئذ من الجامع من دون «نصرى» وقد حطمته أنباء المذبحة الوحشية التى وقعت فى الجامع الصغير ، ولم تكن زوجه قد أخبرته بعد بما حدث لنادية وللخادمة . وفريد ايضا لم يكن بلغه النبأ المزلزل !

على أن بال ((ماريان)) مشغول الآن الى اقصى حد بشأن زوجها بطرس . اذ كيف يستطيع رجل فى مثل سنه وقد جاوز الستين ، لم يألف السير حتى على الطرق الممهدة ، مصاب بعلة

فى القلب ، أن يظل حيا بعد ساعات من التعثر المستمر فوق هــذه الأرض الوعرة القاسية ، فى هــذا الحر المحرق ، ومن غير ماء ؟

كان يمشى على غير هدى ، ويضرب فى طريقه خبط عشواء مثلما يفعل المسنون حوله من الرجال والنساء ، فيضع قدما أمام اخرى من غير تفكير ، وبطريقة آلية ، لا لشىء الا لأنه لا مناص له من ذلك ، والا فليس امامه سوى السقوط على الأرض بين أكداس الحصى الرمادى اللون ونبــات الحسك الشائك ، حيث يقضى نحبه .. مثلما قضى كثيرون غيره نحبهم عندما عجزوا عن الاستمرار فى المناضلة ، فخروا على الأرض لاهثين فاغرى الأفواه فى ذلك الظل المحمى تحت الصخور ، أو فى خميلة عارضة من خمائل الزيتون المتناثرة بين الأحجار ، وهم يئنون :

ــ ماء ! أعطونا ماء !

وكان الظمأ الكبير قد بدأ ينتاب بطرس قبل ان يطردوا جميعا الى البرية . ولم يكن معهم من مقتنيات الدنيا الا الثياب التى يرتدونها ، بعد أن جردوا من ساعات معاصمهم واقلام حبرهم ، بل ومن خواتم الزواج . لقــد بــدأ ظمأه فى المسجد . وكان بالمسجد ماء فى الميضأة حيث يتوضأ المؤمنون من صهريج قبل أن يؤدوا الصلاة ، ولكن الحراس الاسرائيليين تبولوا فى ذلك الصهريج وهم يقهقهون ويهيبون بالفلسطينيين قائلين :

ــ هيا تعالوا واشربوا ! وستجدون مذاقه طيبا !

ولمــا رجع الى البيت وجد به ثلاثة جنود ، رجلين وامرأة ، واقفين بجــانب سيارته عنــد رأس الممر الطويل المغروس بأشجار النخيل والجزورينا المفضى الى داره . وكانت المرأة شابة وسيمة ذات عينين قويتى النظرة ، فيها اعتداد شديد بالنفس يبلغ حــد السلاطة ، فغرست فى ظهره مدفع ستين

وسألته بلهجة المانية واضحة جدا فى نطقها الانجليزى :

ـ أتتكلم الانجليزية ؟

فلما قال لها نعم طلبت منه مفاتيح السيارة ، فسلمها اليها ، وركب الجنود الثلاثة سيارته ، واطلت عليه المرأة المجندة من النافذة المجاورة لمقعد السائق لتقول له :

ـ من الخير لك ولأسرتك أن تغادروا الدار بسرعة ، والا فلن تساوى حياتكم جميعا فلسا واحدا !

وضحك رفيقاها . وعندئذ استطردت مزهوة بوقاحتها :

ـ حتى ولا ثمن الرصاصة !

ثم بصقت عليه .. وانطلق الثلاثة بالسيارة .

اما بطرس فوقف عند رأس سلم مدخل بيته يرقب السيارة الكبيرة البيضاء وهى تنهب ممر أشجار الجزورينا ، وهى وقفة طالما وقفها باعتباره رب البيت المضياف يودع ضيوفه . ثم دخل البيت فى تثاقل واعياء .. وبدأ الاستعداد للجلاء .

وكان المفروض أن يتسنى الحصول فى المدينة على سيارات اجرة تنقلهم الى (رام الله) . وحتى ان لم ينجحوا فى الحصول على أكثر من سيارة واحدة فقط فقد كان فى وسع بعضهم ان يستقلها الى رام الله ليعود منها بما يكفى لنقلهم جميعا .

ولكن عندما وصلوا الى المدينة لم يجدوا بها أى ادوات من ادوات النقل ، من أى نوع .. فالسلطات العسكرية الاسرائيلية قد استولت عليها جميعا ، والعربات المزودة بمكبرات الصوت تذرع الشوارع آمرة الناس بمغادرة المدينة فى مدى نصف ساعة ! **.. ولذا كانت الشوارع غاصة بخليط متزاحم من الناس ، وكانت الكتائب فى كل مكان ، وقد اسكر الجنود النصر ، فهم على استعداد لاطلاق النار لأوهى الأسباب ، أو لغير سبب على الاطلاق !**

وكان ثمة عدد من الفتيان والفتيات فى أزياء عسكرية يتجولون هنا وهنـاك حاملين فى كل يد من أيديهم دلوا مملوءا بساعات المعصم واقلام الحبر وسائر أنواع الحلى والمجوهرات ... وها هو جندى يقف عمـدا امام جماعة من النساء المحجبات اللائذات بباب أحد الحوانيت ويفك ازرار بنطلونه ويشرع فى التبول تحت انظارهن مباشرة . ولمـا أبصره زملاء له من الجنود يصنع ذلك الصنيع القبيح أخـذوا يقومون باشارات بذيئة يوجهونها الى النساء المحجبات المحتشمات !

وكان بطرس وهو واقف على ناصية أحـد الشوارع مع زوجته ماريان وابنه انطون ، وأعضاء آخرين من اهل بيته ، قد رأى ذلك الحادث الشائن فتقلصت يده اليمنى على المقبض الفضى لعصاه التى يحملها على الدوام وقال :

— انهم يأتون بكل ما من شأنه أن يذلنا !

ولكن ماريان وضعت يدها على ذراعه وقالت له :

— انهم لا يعرفون خيرا من هـذا . هيا بنا ! فلعلنا نظفر بشىء نركبه ونحن فى الطريق .

ولكن لم تكن ثمة مركبة ولا دابة ولا طريق .

لا شىء سوى البرية ، وحرارة النهار التى أخذ يشتد اوارها .

— ٢ —

ولم يدرك الفلسطينيون على وجه التحقيق المدى الذى صمم مغتصبو أرضهم على الوصول اليــه فى اذلالهم ، الا بعد ان وجدوا انفسهم فى البرية . فهناك جرد هــذا الشعب الأبى الكريم من كل خصائص الانسانية . وثمة ظروف لا يحتفظ المرء فيها الا بشىء واحد هو تصميمه على البقاء . وفى تلك الظروف تتخلى الأمهات عن أطفالهن لتلتهمهم بنات آوى ، لأنهن عجزن عن حملهم خطوة أخرى ! .. فى هــذه الظروف عينها يترك الشبان ذويهم المسنين ليموتوا ، ويقدم الرجال والنساء على احتساء بولهم وبول أطفالهم . انه المــاء ! انه شىء يرطبون به افواههم الجــافة وشفاههم المشققة التى انتشرت على حوافيها اطارات من الملح بيضاء ، مع ارتقاء الشمس فى كبد السماء .

وذات مرة ، عنــدما جلس أنطون وامين ليستريحا قليلا فى الظل الهزيل الذى تلقيــه خميلة من أشجار الزيتون انتظارا للحاق بقيــة افراد الأسرة بهما ، قال الغلام الأعمى « أمين » لرفيقــه :

ــ توجد صهاريج رومانيــة فى هــذه البقاع . وفى بعض الأحيان توجد بهــا بقية من المــاء . فاذا جئت الى مجموعة من الصخور فعليك أن تنقب بينها . فحينما كنت متمتعا بنور عينى كان من عادتى ان اذهب مع ابى الى البرية لترعى قطعان المــاعز ، وكنا نجد مثل تلك الآبار فيما بين (اللد) و (نعلين) . وتوجد أيضا اشجار الخروب . وقرون الخروب حلوة لذيذة

الطعم ! الا تحبهـا ؟ ! .. الا صبرا يا سيدى ، فحين نصل الى الوادى سيكون المسير اسهل بكثير علينا لأننا نستطيع ان نسير فى الوادى على امتداده الى أن نصل الى القرية . كيف حالك الآن يا سيدى ؟

ـــ قدماى تؤلمـاننى بشكل فظيع . ولست أدرى هل فى وسعى ان استمر فى المسير وأنا احمل سترة حلتى ؟

ـــ لماذا لا تلقى بها عن كاهلك ؟ لماذا لا تنبذها ؟

ـــ انها افضل حلة عندى . وان انا القيت بها لن اجد شيئا ارتديه عندما اصل الى (رام اللـــه) . والجو فى رام اللـــه بارد فى الشتاء جدا كما تعلم .

ـــ ان ابناء عمومتك هناك سيمدونك بكل ما ينقصك . ثم منذا الذى يدرى هـل سنكون هناك فى الشتاء أم لا ؟ ان الجيش العراقى سينضم الى الفيلق العربى لتحرير فلسطين وسيلقى باليهود الى البحر ! ان شاء اللـــه !

فأمن انطون على كلامه قائلا بلهجة آليـــة :

ـــ ان شاء اللـــه .

وكان حشد من الناس يستريح معهما تحت ظـلال اشجار الزيتون ، مستلقين أو منبطحين على الأرض الصخرية ، أو جالسين وظهورهم الى جذوع الأشجار ، محدقين فى شرود الى الأفق الرتيب الرحب من الأرض الحمراء والحصى الرمـادى والشوك الأبيض .. وحـدود التلال الصخرية الجرداء التى تتميز بهـا فلسطين يقف عندها البصر ليجدها طبقات فوق طبقات ينتهى اليها السهل المترامى المتموج ، كأنه بحر تجمدت أمواجـه !

وكان ثمة عدد من الأطفال الباقين على قيد الحياة ، وامرأة عجوز لا تكف عن الأنين فى طلب المـاء ، وجماعة من النساء جالسات القرفصاء محجبات الوجوه لا يتكلمن ، ولكن أيديهن

الخشنة تنم على حقيقتهن بوضوح فهن ريفيـات .. وكانت هناك ايضا امرأة شابة جالسة وعلى صدرها طفلها الذى مات، تحملق فيه بنظرة خاليـة من كل تعبير ، وطرحتهـا البيضاء مسدلة على نصف وجهها .

ما من أحـد فى الحقيقـة كان يلقى باله الى سواه . فكل مشغول بنفسه . وعلى مدى الأفق زرافات من الخلق . ألوف من الناس على مدى النظر . كل واحد منهم يتحرك ببطء وجهد فى اتجاه واحد صوب الشرق . ووجوههم الى الأردن .

وأخيرا وصل والدا انطون وسائر افراد آل منصور الى تلك المجموعة من أشجار الزيتون ، وارتموا فى الظل الحار . ونظر الصبى بقلق الى امه . وكانت امه اصغر من ابيـه بعشرين سنة وأقوى منه بنيـة بكثير ، ولكن قلقه كله كان بشأنها . فلديه احساس بأن أباه على رغم سنه وعلة قلبـه انسان لا يلحقه الفنـاء . فبطرس آل منصور من أسرة فلسطينية مرموقة . وابنه يؤمن بأنه رجل عظيم عن جدارة واستحقاق . وعظمـاء الرجال لا يسقطون على الأرض ولا يموتون . انهم قد يهانون ويذلون ، وتغتصب أملاكهم على يد الأعداء ، وقـد يطردون الى البرية ، ولكنهم اذا ماتوا بسبب ذلك فمعناه انهم قبلوا الهزيمة . وأنفتهم وكبرياؤهم لا يسمحان لهؤلاء العظماء من الرجال بتقبل الهزيمـة !

كان هذا التصور لأبيه العربى يريح اعصاب انطون . اما امه الانجليزية فهو يشعر انه لا ينتظر منهـا ان تكون حائزة لهذا العنفوان الجسدى وتلك الأريحية المعنوية . ثم انها كانت فى حال بالغة السوء عندما غادروا البيت . ولذلك صلة ما بجنود (الهاجاناه) الذين وضعوا ايديهم على ابنـة عمه نادية والخادمة رندا .

انه يجهل تفاصيل المسألة ومحور الموضوع . ولكنه يعلم

انه كان ثمة صراخ كثير وهياج شديد ، وأن كل من فى البيت كانوا يبكون وينتحبون . وعندما غادر الجنديان البيت كان عليهما أن يقاتلا النساء اللواتى تعلقن بهما وخمشنهما بأظافرهن . وفزع أنطون خشيه ان يعمد الجنديان الى شهر مسدسيهما والشروع فى اطلاق النار . وبدا فى لحظة من اللحظات انهما فاعلان ذلك لا محالة !

لقد كان الأمر كله مروعا مزعجا . وعندما سمح للجنديين بالفرار انهارت أمه ، وكانت حالتها فى منتهى الفظاعة . كذلك كانت حالة نادية فظيعة . أما رندا فلم يكن لها هم سوى البكاء .

وشكت أمه من صداع شنيع اصابها بعد انصراف الجنديين . وعلى الرغم من هذا الصداع شرعت فى اليوم التالى فى السير الى (رام الله) ، فوق ارض لا يحلم بشر فيما عدا الرعاة بأن يطأها بقدميه . وبعد فترة من السير جعلت تمشى بمشقة وهى صامتة ، شأنها فى ذلك شأن معظمهم ، ولم تقبل نحوه عندما رأته يصاب بنوبة اخرى من نزيف الأنف .

غير انه لم يحنق عليها بسبب ذلك . فلم يكن فى يدها أن تصنع له شيئا . بل لم يكن هناك ما يمكن أن يصنعه اى انسان لأى انسان . فكل واحد مشغول بنفسه . وهذا هو الهوان الذى فرضه اليهود عليهم عندما طردوهم الى الطريق ليناضلوا ويتعذبوا كالبهائم فى تلك البرية .

وقال فى نفسه : انهم يريدون أن يفرضوا علينا العذاب . يريدون أن يذلونا . وفى وسعهم ان يفعلوا ذلك بنا ولكن ليس فى وسعهم ان يفنونا . وظلت هذه الفكرة الأبية تسند روحه المعنوية مدة ، ولكن بعد ذلك حلقت فوقهم الطائرات السوداء الصغيرة ، وهبطت الى ارتفاع منخفض ، فلم يعد ثمة شىء سوى الفزع والرعب والخوف المميت من الموت .

ومع تقدم النهار صار جليا أن كثيرين من هؤلاء الناس لقوا حتفهم على أفظع صورة . وكلهم من المسنين والأطفال الصغار ومن لا حول لهم ولا طول . وكانت أمه تبدو فى حالة فظيعة ، كأنما هى ايضا معرضة للفناء .. وهاهى امه قد ارتمت بجواره الآن ، ولأول مرة منذ غادروا البيت منحته ابتسامة يسيرة . وحتى فى الليالى الأخيرة الفظيعه عندما قذفت المدينة بقنابل المدافع والطائرات — حينما اطبقت عليها الكتائب اليهوديه — كانت تتمكن دائما من الافترار عن ابتسامة عارضة كى تبقى روحهم المعنوية عاليـــة .

لقد كان الحال عصيبا جدا ، ولكنهم لم يواجهوا ذلك الخوف الشخصى المميت من الموت ، ذلك الخوف الذى حل بهم مع أنباء المذبحة فى الجامع الصغير ومع التعرض للهلاك فى البرية حين أخـــذت تلك الطائرات السوداء اللعينـــة تطير على ارتفاع منخفض بصوتها الغريب المختلف عن كل صوت آخر .

وقالت ماريان :

— لا بد أن نكون الآن فى منتصف المسافة الى (نعلين) . وقد سمعت بعضهم يقولون انهم يستطيعون أن يروا الوادى بالفعل . اننا عندئذ نستطيع على الأقل أن نعرف اين نحن . فالسير على غير هدى هو الذى ينهك قوانا . ونحن لم نفعل شيئا سوى السير صوب هدف غامض فى مكان لا نعرف أين هو !

وكانت قصيرة القامة ، نحيفة ، داكنة الشعر ، ذات ملامح حسنة وعينين زرقاوين زرقة عجيبة ، ورثها انطون عنها . وكان من الممكن أن يظنها الناس عربية — وكثيرا ما ظنوها — فلم يكن فيها شىء انجليزى مميز ، بل ولا أوربى مميز . وكانت فى الأحوال العادية تبدو أصغر سنا من اعوامها التى ناهزت الأربعين . اما الآن فهى تبدو عجوزا الى درجة تكاد تجعلهـــا

امرأة اخرى ، وتحت عينيها ظلال سوداء من اثر الاعياء العقلى والبدنى . وشفتاها مشققتان ينزف منهما الدم . وثوبها الرقيق المصنوع من القطن ، ذلك الثوب الذى كان ناضرا قشيبا عند بداية المسير ، غدا خرقة كثيرة الأوضار مبللة بالعرق .. كان مظهرها اشبه بمظهر امرأة غجرية قضت ليلتها نائمة فى حفرة ، وهى التى كانت فى العادة نموذجا للأناقة والهندام !

وناديه التي جلست بجوارها ، بدت ايضا زرية الثياب ، ومحياها الشاحب الجميل شبيها بوجه فتاة تسير فى نومها . فهى تحملق فى الفضاء ولا تتكلم !

أما بطرس واخوه فريد فجلسا على مسافة قليـلة فوق صخرة صغيرة ملساء ، وقد اعتمد بطرس على عصاه ذات المقبض الفضى ، ورأسه الجميل منحرف الى الوراء قليلا وهو ينقب بعينيـه فى الأرض الممتدة حتى حافة الأفق عن الوادى الذى يوصـل الى جنوبى قرية نعلين حيث ينبغى ان يقضوا الليلة . وحيث يروون ظمأهم ان لم يجدوا شيئا يأكلونه .

لقد ازداد وزنه فى السنوات الأخيرة . بيد انه لم يزل ، فى الثانية والستين من عمره ، رجلا وسيما مهيب المنظر ، وفى محياه ما يتم على الفكاهة وعلى الحزن معا ، مع هيبة عظيمة.

أما شـقيقه فريد ـــ الأصغر منـه بعشر سنوات تقريبا ـــ فيشبهه ، وان كان اقل منـه وسامة ومهابة . فيه شىء من الفكاهة ولكن بدون ذلك الأسى الغامض الذى يعتبر عنصرا هاما فى اضفاء ذلك السحر الخـاص وتلك الحساسية على الشقيق الأكبر . وكانت ماريان تميل الى شقيق زوجها وتشعر نحوه بالاعزاز ، ولكنها لم تكن حرية أن تتزوج شخصا آخر على الاطلاق سوى بطرس .

وكانت «ماجدة» زوجة فريد امرأة وسيمة تميل الى البدانة ، **وقـد جلست على العشب بجوار نادية تحاول ان ترفه عن**

الطفلين اللذين راحا ينتحبان من شدة الظمأ والاعياء . وكان أكبر الطفلين فتـــاة صغيرة فى الرابعة من عمرها رقدت على الأرض الوعرة وأنشأت تبكى فى تعاسة ملحة .

ونظرت ماجدة بيأس صوب سلفتها وقالت لها :

ــ لست أدرى كيف سيمكننا ان نصل بالطفلين الى هناك .

فرفهت ماريان عنها قائلة :

ــ لم يبق أمامنا الا ساعتان .

وكانت تعلم أن المسافة قــد تمتد الى ثلاث ساعات على الأقل . ولكن لفظ ساعتين كان يبدو أقل بكثير من لفظ ثلاث ساعات . وحين تنقضى الساعتان ويكون ثلثا الطريق قد قطعا فمن الممكن عنــدئذ أن يجد الانسان القوة على قطع المسافة الباقية . ثم ان حرارة النهار ستكون قــد قلت أيضا ، وذلك من شأنه ان يساعد كثيرا على تخفيف الحالة .

وقال أنطون فى امل :

ــ لعلنـــا نعثر فى طريقنـــا على صهريج من الصهاريج الرومانية . فأمين يقول ان بعض هذه الصهاريج موجود فى هذه الأنحاء ، وقد يكون فيها ماء .

وتســاءلت ماريان فى لهجــة يائســة كيف يمكن لهم أن يستخرجوا المــاء من باطن تلك الصهاريج العميقة حتى ان وجدوا صهريجا منها غير جاف . فالمــاء الموجود بها لا بــد أن يكون على بعد سحيق ... بيد انّ ما فى صوت الغلام من اللهفة ــ وانهــا للهفة شابة يافعة للغــاية ــ جعل قلبهــا لا يطاوعها على تثبيط همته ، فقالت :

ــ علينا اذن أن نفتح عيوننا جيدا لنتسقط مواضعها .

وكان من السهل على المرء أن يرتد آدمى الشــاعر وهو جالس هناك تحت أشجار الزيتون ، بعيدا عن عملية الافناء ، وسحق الروح المعنوية ، وانهاك القوى فى ذلك الارتحـــال



« .. لست أدرى كيف سيمكننا ان نصل .. »

الاجبــارى ! .. ان الظمأ المستعر لم يزل على حاله ، ولكن وطأته غدت أقل فظاعة بعد ان كف الجسد عن التصبب عرقا وهو يبذل المجهود فى السير المهلك ، واستراحت الأقدام من الاحتكاك الفظيع الذى أصابها بالتهابات وفقافيق جعلت من كل خطوة عذابا مقيما لا يمكن احتماله ، ومع هذا فلا بد من احتماله ، لأن ذلك هو المهرب الوحيد من الاستلقاء على الأرض والموت بضربة الشمس والعطش !

وكانت ثمـة راحة أيضا من الفزع ، اذ انقضت عليهم الآن فترة من الزمن لم يروا فيها جنديا اسرائيليا ولا طائرة غادرة من طائراتهم . ولم يعد أحد يطاردهم ليوغلوا فى البرية كما تطارد كلاب الصيد فرائسها . ولكنهم كانوا قـد ابعدوا بما فيــه الكفاية عن طريقهم بحيث صارت تفصلهم عنــه أميال عديدة ، وليس أمامهم الا الاستمرار فى خوض البرية .

ان مجرى الوادى الصخرى سيكون عذابا من نوع جديد لهم عندما يصلون اليه ، فتلهب حجارته الأقدام المتورمة والدامية ، فليس ذلك الوادى الا مجرى نهر أصابه الجفاف . ولكن له مزية لا يستهان بهـا ، فهو طريق واضحة المعالم لا يضل من يسير فيهـا ، **وبـذلك يتخلصون من الضرب على غير هـدى . انهم عندئذ سيعرفون على الأقل انهم بعد ساعة أو ساعتين من المشى لا بد ان يصلوا الى قرية (نعلين) ، وهى القرية التى لم تزل فى أيدى العرب .**

كان كثيرون يأتون ويذهبون ، وبعضهم يستريح فى العراء فى ظل الصخور والحصى الأملس الضخم ، وانه لظل هزيل . فالحركة دائبـة لا تنقطع ، والسهل المتماوج مزدحم بالناس كزحام شوارع المدن المأهولة فى أيام المواسم . وانه لحشد من الناس متعدد الألوان حقا ، يبلغ تعداده عشرات الألوف من الأنفس فى خليط عجيب ، ففيهم الرجال والصبيان ممن يرتدون

القمصان البيضاء والبنطلونات ، وفيهم من يرتدون الزى الغربى التقليدى والعقال المعروف . وفيهم نساء وفتيات فى زى أوربى حديث الطراز ، ومنهن من ترتدى زيا أسود اشبه بزى الراهبات ، ومنهن من تلبسن الزى الفلسطينى التقليدى الموصوف فى التوراة ، وهو زى طويل ضاق مثقل بالوشى والزخارف ، وعلى ظهورهن تتدلى الطرح البيض التى تغطى رؤوسهن . والمسنات منهن يرتدين الزى الفضفاض الأسود أو الرمادى وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل . اناس من كل لون وصنف ، فيهم القرويون وسكان المدن . فيهم الفقراء واهل اليسار ، فيهم المسلمون والمسيحيون . وما أكثر الأطفال فيهم . ففى كل موضع أطفال يحملهم اهلوهم ، او يجرون اقدامهم ممسكين بذيول امهاتهم . وكلهم صغار ، سود الشعر ، سود العيون ، وهؤلاء هم الجيل الصاعد من الفلسطينيين .. جيل يشب بلا وطن ، وبلا ديار ، وبلا مستقبل ، **وقد كتب على كثيرين منهم ان يشبوا فى مسغبة المعسكرات وتعاستها ، بل ان كثيرين من هؤلاء الصغار الأبرياء كتب عليهم أن يموتوا هاهنا فى البرية !**

وكان بعض هؤلاء الناس المتباينى التكوين لهم اقارب فى (رام الله) — كما هو حال آل منصور — وهؤلاء هم المحظوظون ، وهم قلة قليلة . وأقلية منهم ايضا من لديهم اموال وممتلكات فى ذلك الجزء من فلسطين الذى أصبح الآن اسرائيل . اما الأغلبية الساحقة فلا يملكون الا الثياب التى يرتدونها وايمانهم بالله الذى لا يغفل ولا ينام . والجميع قد خلفوا وراءهم الأراضى التى كانت عائلاتهم تمتلكها وتزرعها منذ قرون لا تحصى . فهم جميعا — رجالا ونساء — أناس كادحون ، يتجه كل كفاحهم الآن لمقاومة الفناء تحت هذه الشمس المحرقة فى هذا السهل الذى يجتازونه باقدام متورمة

ظل أحذية ابلتها الصخور والأشواك !

ان هذه الأرض الموحشة لا يجسر البدو انفسهم على السير فيها معرضين لضربة الشمس والهلاك عطشا واعياء . ومع هذا يتحرك سوادهم الأعظم متعثرين فى كل خطوة يخطونها فينهضون فى صمت ويواصلون التقــدم فى عناء كأنهم تماثيل آلية صماء .. لأنهم يعلمون ان البديل الوحيد للتقدم الى الأمام هو الموت المحقق . وارادة الحياة تلازمهم الى آخر نفس من انفاسهم المكروبة اللاهثــة .

— ٣ —

وجال فى ذهن المرأة الانجليزية هــذا الخاطر :

ــ لو اننى لم اتزوج هذا الرجل الفلسطينى منذ اربعــة عشر عاما لمــا كنت الان هاهنا ، فى هذه المحنة !

ولكن الشعلة الصغيرة التى اندلعت من هذه الفكره لم تلبث ان اضطربت ثم خمدت انفاسها تماما امام الفكرة المقابلة لها ، فقالت تحدث نفسها :

ــ او لم اتزوجه لعشت فى انجلترا طيلة تلك المدة ، ولكان من الجائز جــدا أن القى مصرعى فى احدى الغارات الجوية التى شنها الألمــان !

ونظرت صوب زوجها ، فاذا هو جالس فوق صخرة ملساء متجها بجسمه الى الأمام ، وكلتــا يديه فوق مقبض عصاه الفضى ، وقميصه الأبيض المبلل بالعرق لاصق بجسده ، وتحت عينيه جيوب ، فبــدا فى تلك الجلسة مسنا مريضا . ومع هذا كله لم تزل عليــه سيما ذلك السمت المهيب ، ومخايل ذلك السلطان الذى جعل الناس ينادونه دائما بقولهم « يا بك » .

وقالت فى نفسها انه قاسى كثيرا جــدا . فكيف يمكن أن يعيش ؟ .. فان لم يكتب له أن يعيش فكيف استطيع انا ان اعيش ؟ ان قوتنا رهن بأيامنا وأحوالنا . كان ابى يقول ان تلك الحكمة رثة ابتذلها الاستعمال ، ولكنها صحيحة صادقة . **فاللهم اجعلها تصدق ايضــا ! .. اعطنا القوة كى نستطيع مواصلة السير .. مسافة اخرى قصيرة .. ومدة اخرى اطول مما استطعنا .. ولو تلك الساعات القليلة التى سيستغرقها هــذا السير المهلك !** اعط بطرس القوة يارب ! بطرس على

الخصوص يارب ! اما أنا وانطون فسيكون فى استطاعتنا ان نتدبر احوالنا .. أما ان لم يستطع بطرس ان يقاوم ويثبت لهذه المحنة ، فلن يكون فى بقائنا نحن جدوى يارب .. !

أما بطرس فلم يوجه كلاما الى زوجته او ابنه . بل ولا حتى لأخيه ، أو لأى امرىء آخر ، وهم جالسون تحت ظلال اشجار الزيتون وسط البرية . بل انه لم يحول رأسه لينظر اليهم . ولم يكن هذا عن عدم اكتراث منه بعذابهم أو مدى قدرتهم على مقاومة الفناء المحدق بهم ، بل لأن المأساة الجماعية التى كانت دائرة من حوله ، والتى لم تكن مأساته هو ومأساة أفراد اسرته الا جزءا صغيرا جدا منها ، **كانت نكبة انسانية ضخمة ، وكارثة هائلة صبت على شعب برىء .. هائلة جدا الى الحد الذى جعل رثاءه لما يصيبه ويصيب آله الاقربين يتوارى بين طياتها الجهنمية !**

ان تشريد الألوف المؤلفة من البشر رجالا ونساء وأطفالا ، والالقاء بهم الى جوف برية التيه ، لم يكن مذبحة أهون شأنا من تلك المذبحة الأخرى التى تمت بنيران المدافع الرشاشة وأسنة الحراب ضد النساء والأطفال فى قرية (دير ياسين) فى اليوم العاشر من ابريل ، ولا هى أهون من حصد ارواح ثلاثمائة رجل فى الجامع الصغير فى (اللد) منذ ثلاثة أيام .. فهى مذبحة للعجائز والأطفال الرضع الذين تحملهم أمهاتهم فوق صدورهم ، وللصغار الذين لم يتقنوا بعد الكلام والذين لم تثبت بعد فى الخطو على الأرض أقدامهم الصغيرة .. انها مذبحة الأبرياء !

كان من اليسير عليه أن يستعين بقوة ارادة حديدية للسيطرة على نفسه كى يتحمل ذلك العذاب البدنى . والحق ان عذابه الجسدى كان من الشدة بحيث كان فى كل لحظة على شفا الانهيار . الا أنه كان يأبى بعناد وصلابة ان يموت كما

تنفق الدابة فى هذه البرية . من هذه الكبرياء العنيدة استطاع ان يستمد رصيدا من القوة يعينه فى آخر مرة على الاستمرار فى المسير على نحو ما .

أما عذابه الداخلى ، عذابه المعنوى ، فهذا هو العذاب الذى لم يكن لديه أدنى رصيد من القوة يستعين به على مواجهته . فالفظائع التى كتب عليـــه أن ينبرى لمواجهتها فى الساعات الأربع والعشرين الأخيرة كانت أكثر مما يطيق . كانت ثمة تلك الفظائع التى عاناها فى المسجد الكبير ، وذلك الظمأ الذى لم يستطع أن ينقع منه غلته لا فى الليل ولا فى النهـــار ، وبذاءة اولئك الجنود وهم ينجسون الصهريج ثم يدعونهم ساخرين هازئين للشرب من مائه ، ويحولون بينهم وبين دورات المياه . فلما انجابت سحابة النهار وقلت وطأة الحر لم يجد الرجال المعتقلون بدا من قضاء ضروراتهم الجسدية لصق جدران الفناء الملحق بالمسجد وفى الأركان ، تحت أنظـــار بعضهم البعض ، فصارت الرائحة الكريهة شيئا خانقا للأنفاس . يضاف الى ذلك ما اســـتولى عليهم طـــول الوقت من الخوف والفـــزع والتوجس : فمن يدرى ماذا يمكن أن يحدث لهم فى اى لحظة من اللحظـــات على حين غرة ؟ **ومن منهم يدرى ما الذى يمكن أن يحدث ــ او يمكن ان يكون قـــد حدث فعـــلا ــ لأسرهم أثناء غيابهم ؟ وما معنى هذه الانفجارات المتقطعة التى تنبىء عن اطلاق المدافع الرشاشة ، وان اصواتها لتترامى اليهم من جوف المدينـــة .. ؟ !**

وفى احدى المرات طالت هذه الانفجارات فى خيط متصل .. ولم يعرفوا جلية الأمر عندما اطلق سراحهم فى صباح اليوم التالى ؛ فعرفوا عندئذ أن هذه الطلقات كانت ايذانا بالمذبحة الرهيبـــة فى الجامع الآخر ، ذلك الجامع الذى كان فريـــد والآخرون يريدون بالأمس أن يذهبوا اليه ، والحوا فى ذلك .

ولقد اوشكوا ان يذهبوا الى هناك فعلا .

يا للصدفة المذهلة ! ويا للرعب المصمى ! .. ثم بعد ذلك صدر اليهم الأمر بالرحيل « والا فلن تساوى حياتكم فلسا واحدا ! » . انه لن ينسى ما عاش سحنة تلك المرأة المجندة وهى تطل عليه من نافذة مقعد القيادة فى السيارة — سيارته هو ! — لتبصق وتنفث ذلك الغل المسموم فيه . لقد عاش عمره كله يحب النساء ويكرمهن ويجلهن ، ويرى فيهن المثل الكامل للرقة والدماثة والحنان . فهن فى نظره مخلوقات تفيض عطفا ، فهن الزوجات وهن الأمهات . ولكن ها هى امرأة فى خاتمة المطاف تبصق عليه .. ولم يحدث له مثل ذلك من قبل ، حتى ولا من المرأة التى تركته .. وبعد ذلك بدأ هذا الارتحال القاسى فى البرية فى حر الشمس اللافح ، وناهيك بشمس يوليو الرهيبة الضارية فى ذلك السهل الساحلى ، وتلك الطائرات الصغيرة السوداء تنقض عليهم وتطير على ارتفاع منخفض جدا ، لتذود الناس بالارهاب والفزع فتبعدهم عن الطريق ليوغلوا فى البرية ، ثم تطاردهم هناك ليزدادوا فى البرية ايغالا حتى يصلوا الى الجبال .

ذعر وفزع . والغاء للمقومات البشرية الغاء متعمدا يفرض على أولئك البسطاء الأبرياء فرضا . وكأنما لم يكن كافيا لأولئك الأشرار أن يسلبوهم وطنهم وبيوتهم وارضهم وكل ممتلكاتهم المادية ، فراحوا يسلبونهم أيضا كرامتهم الانسانية . بل وما اكثر من سلبوا منهم أرواحهم ذاتها !

وكان بطرس متنبها الى المرأة التى كانت جالسة عن كثب منه تحت اشجار الزيتون وعلى صدرها طفلها الذى مات عطشا ، مثلما فطن من قبل — اثناء المسير — الى تلك المرأة الأخرى التى أطلقت صرخة ضارية وهى تلقى بفلذة كبدها حيا الى قاع حفرة فى تلك البرية المتأججة بحر الهجير ، لأنها لم

تعد قادرة على حمله خطوة أخرى ، ولم تعد قادرة على الاستمرار فى الحياه على المستوى البشرى بعد أن ذهب بعقلها عذاب الظمأ والاعياء ! .. وكان متنبها أيضا الى المسنين من الجنسين الذين نفدت قوتهم فتهاووا على الأرض ، فتركهم بنوهم وذووهم ليموتوا بعد أن يطلقوا القلة الواهية من انفاسهم الأخيرة حيث سقطوا ، ومرت بهم الجموع الذاهلة زاحفة نحو هدفها المجهول ، وداسوهم بأقدامهم مثلما كانت عجلات الرومان المتوحشين تدهم المنهزمين فى العاب السيرك على عهد الأباطرة .

اجل ، كان بطرس متنبها للناس من حوله فى جمود وعدم مبالاة بالذين يقدمون منهم — رجالا ونساء — على ضم راحات ايديهم ليجمعوا فيها بولهم كى يشربوه شرب البهيم ، بل ويجمعون ايضا فى راحاتهم بول سواهم ، يقاتلونهم عليه ليظفروا لأنفسهم بقطرة من ذلك السائل الثمين الذى اصبح على دنسه مرادفا للحياة !

وكان متنبها اشد التنبه واعمقه لزوجته وهى تظلع فى مشيتها بألم واضح فى صندلها الممزق من حجارة البرية ، ومتنبها ايضا لما كان مرتسما بجلاء من امارات التعاسة على محياها . ولكن ما من شىء يستطيعه لها رغم كل ما يكنه لها من الحب والرعاية والاعزاز . وكان هذا الاحساس بالعجز عنصرا من اقسى عناصر عذابه الداخلى .

وكان متنبها كذلك لمسير ابنه الشاق المتثاقل وقد اطبق يده على يد الغلام الأعمى ، وخيل اليه ان تلك اللمحة الخيرة هى الشىء الوحيد الصالح الطيب فى كل هذا الجحيم الذى يتلظى بألسنة سعير من الحر ، والعذاب ، والظمأ ، وفقدان الاحساس بالغير ، لأن كل امرىء كان مشغولا بذات نفسه عن كل من عداه ، منصرفا للنضال فى سبيل البقاء فى هذه الحياة .

ان ابنه انطون يستحق وحده على الأقل ان يبقى حيا مهما جرى الهلاك على غيره ممن حوله !

وارهقه القلق على ابنه وقد بلغ من التفكير فى امره هذا المبلغ ، واستمد من ذلك زادا من القوة فنهض ، واستأنفوا مسيرهم . وفى هذه المرة اتت ماريان ومشت بجانبه . وقالت له وهى تحاول بث الهمة فى نفسه :

ـــ سنصل بعد قليل الى الوادى ان شاء الله .

واستقرت نظرته عليها برهة ، وقال لها بالانجليزية :

ـــ سأتمكن من المقاومة الى ان نصل . لا تقلقى على . كيف حالك أنت ؟

ـــ انا بخير .

وبعد بضع دقائق تخلفت عنه لتحمل احد طفلى نادية . ولكنها بعد ذلك تعثرت كمن اصابها العمى من شدة الاجهاد ، لأن حمل الطفل كان اقوى من احتمالها ، فكادت تصاب بالأغماء ، لولا أن شخصا ما اخذ منها الطفل وهى مغمضة العينين .

وكان هذا الشخص فريد .. الذى قال لها يشجعها :

ـــ قد يوجد صهريج من صهاريج الرومان تحت هذه المجموعة من الصخور التى ترينها أمامنا هناك .

ـــ من الخير لنا الا نتعلق بالآمال الكاذبة .

فلم يعقب على كلامها ، بل حمل الطفل الباكى على كتفيه وغذ السير ، بينما مشت ماريان مع النسوة الاخريات .. وقالت ماجدة :

ـــ اذا لم نجد ماء عندما نصل الى هذه الصخور فانى ميتة لا محالة ! لم يعد فى وسعى ان اواصل المسير وانا ظمأى . آه ! بحق السماء !

ورفعت احدى يديها ولطمت الطفل الآخر المتعلق بها على صفحة وجهه ثم دفعته عنها بعيداً فى غلظة ، فسقط الطفل

على الأرض باكيا . وصاحت ماجدة بضراوة :
ــ لم يعد فى استطاعتى الاستمرار فى حمله !
ثم انفجرت تبكى بكاء هستيريا وهى تقول :
ــ انا انتهيت ! لا استطيع المسير !
فحملت ماريان الطفل الباكى وحاولت ان تسرى عنه ، ثم قالت لماجدة :
ــ سنصل الى المـاء بعد قليل . لقد انتهى اسوأ جانب من الطريق الآن . تشجعى . تشجعى !
وحملت الطفل على ظهرهـا ومشى الجميع قدما .. مشى الحشد الهائل المتدافع ببطء ومشقة ، ووجوههم جميعا صوب الشرق ..
وعندما وصلت جماعة آل منصور الى الصخور كان جمع كبير جدا من الناس قد ازدحموا حولها من قبلهم . وشق انطون والغلام الأعمى طريقهما بين المتزاحمين وراحا يناوران ويداوران باصرار الى أن نفذا الى المقدمة من تلك الصفوف المتراصة . وكانت الصخور فوق نشز من الأرض مرتفع بعض الشىء وفيما بينها بئر كان الرومان قد احتفروهـا . وهى بئر غائرة اذا نظرت فى جوفها ألفيت لمعات المـاء فى القاع . وكان الناس قد عقدوا مناديلهم وجزازات من ثيابهم بعضها ببعض وادلوا بها فى جوف البئر ، وكانوا بعد ذلك يخرجونها وقد تلوثت بالطين ، الا انه طين بليل . فكانت العـائلات تتقاسم قطع القماش الندية فيما بينها وتمتصه . والطلب على هذه المناديل الموحلة شـديد جدا ..
وكانت النساء يستخدمن الطرح التى يغطين بها رءوسهن ، فتشاور الصبيان فيما بينهما وانتهى رأيهما الى انهما حتى فى حالة تعاونهما معا لن يستطيعا صنع حبل يصل طوله الى مستوى الماء البعيد الغور . ولكن اذا اقدمت جميع نسـاء

جماعتهما على تمزيق جزازات من ثيابهن فسيكون فى وسعهما ربط هذه الجزازات بعضها ببعض ليصنعا منها حبلا يفى طوله بالغرض المنشود !

وعندما عادا الى بقية الجماعة كانت رندا تحمل الطفل ، أما ماريان فكانت لم تزل مشغولة بماجدة التى لم تفارقها حالتها الهستيرية . وقال انطون :

— فى البئر ماء .. ماء مختلط بالطين الى درجة كبيرة جدا . والناس يدلون بحبال من مناديلهم وجزازات ثيابهم فتخرج سوداء من الطين ولكنها ندية بالماء . ويقبل الناس على مصها.

فصرخت ماجدة :

— ومن ذا الذى يريد ان يمص الطين ؟ انى افضل على هذا الف مرة ان اشرب ماء تبولى !

وكانت ماريان قد وصلت من الاعياء والهبوط الى مدى لا مزيد عليه ، فأحست فجأة انها لم تعد تطيق اكثر مما اطاقت ، واذا بها تلطم ماجدة على صفحة وجهها ، فترنحت وسقطت على الأرض ، ثم جلست تبكى بهدوء وقد ثقلت عليها تعاستها ، غير انها برئت من الهستيريا . وارتمت ماريان بجوارها وراحت تمزق هدب ثوبها . ولما فرغت منه شرعت تعمل التمزيق فى هدب ثوب نادية ، وانطون يعاونها فى ذلك .

ولبث الغلام الأعمى معهن ، فى حين مضى انطون الى الصخور ومعه ذلك الحبل المصنوع من جزازات الثيات . واستغرق غيابه بعض الوقت ، ولما عاد ألفى اباه وعمه قد لحقا بالجماعة، وقسم الحبل قسمين، فحظيت النساء بقسم منه رحن يمتصصن ماءه ، وحظى الرجال بالقسم الآخر . وجعل الجميع من فرط

سرورهم بترطيب حلوقهم وشفاهم الجافة بذلك البلل المبارك لا يفطنون الى طعم الطين الممجوج .

ولم يكن قرب الصخور ظل على الاطلاق ، فلم يمكثوا فى ذلك الموضع طويلا ، وسرعان ما اقتربوا من التلال القاحلة الصحراوية ثم دخلوا خورا عريضا قريب الغور .. وكان هذا هو الوادى المنشود ، وقد بلغوه فى النهاية .. غير مصدقين !

— ٤ —

وبدا الوادى جحيما من العـذاب لا يقل عن جحيم البرية نفسها ، والصخور فيه تملأ القاع ، حتى ان بعض الناس فضلوا السير على الجانبين شاقين طريقهم بين الحجارة وكتـل الصفا . ولكن هذا لا ينتقص من مزية الوادى باعتبار، طريقا واضحة المعالم ، فهو من هذه الناحيه ليس اقل شأنا من خطوط السكك الحديدية التى يتبعها الناس فى الفيافى كى لا يضلوا .. وسرعان ما التأم شمل الجموع الحاشده شيئا فشيئا فى ذلك الوادى، وتفرقوا جماعات تسير تباعا كأنهم موكب مظاهرة هائل يمتد مسافة بعيدة لا يكاد يدرك آخرها الطرف .

وفى هذا الموسم كانت قد بدأت ثمار التين الشوكى فى الظهور، وتفتحت ازهار فى مجموعات من نبـات الدفل قرمزية اللون خففت من رتابة التربة الحمراء والحصى الرمادى الذى يكسو البرية . ثم فجأة تراءت للناس اشجار صغيرة متناثرة ، لونها بين الرمادى والأخضر ، هى اشجار الخروب الصغيرة الضامرة. ولكن قرونها الطويلة البنية اللون التى كانت تتدلى من اغصانها اثلجت الصدور التى كاد يقضى على اصحابها الجوع والظمأ.

واشتدت قبضة يد انطون على يد الفلام الأعمى . وصاح :

— اشجار الخروب . هيا بنـا !

— أين هى ؟ فوق الوادى ؟

— اجل . وقريبة منه جدا . وهاهم الناس يتقاطرون صوبها متزاحمين كأنهم جيوش النمل !

— اذهب انت ودعنى . سيكون ذلك اسهل عليك من غيرى. سانتظرك هنـا .

وجلس امين على الأرض القرفصاء تأهبا للانتظار . اما انطون فحين وجد نفسه قد تخفف من جر ثقل الغلام الأعمى ، صعد جانب الوادى وأسرع يعدو تلك الياردات القلائل صوب اقرب شجرة خروب . وكان بضعة رجال وغلمان قد تسلقوها بالفعل . ولكنه تعلق بأقرب غصن به قرون مدلاة وقطع عددا منها . ولكن شابا كان جاثما فوق غصن اعلى منه ركله بقدمه وانتهره غاضبا وسبه ، طالبا اليه ان يبحث لنفسه عن شجرة أخرى .. غير ان انطون لم يبال بالركل وظل متشبثا بغنيمته وراح يجمع مزيدا من قرون الخروب الثمينة ويحشو بها جيوب بنطلونه وداخل قميصه المبلل بالعرق . وعندئذ صوب الشاب الجاثم من فوقه ركلة شديدة الى وجهه بكل وحشية فأرغمه على النزول .

وكان الظمأ قد قلل احساس الناس بالجوع . ولكن الأيام الأخيرة التى تخللها الضرب بالقنابل كانت ايام مجاعة لم يظفر فيها معظم الناس بما يتبلغون به .. والذين حظوا بفنجان صغير من القهوه التركية وبضع زيتونات فى ساعة مبكرة من هذا الصباح يعتبرون بلا شك من القلة المحظوظة !

وكان انطون جائعا جدا ، وادرك ان امين جائع ايضا . ثم من يدرى هل سيجد كل هؤلاء شيئا يأكلونه عندما يصلون فى آخر المطاف الى (نعلين) أم لا ؟ .. وحين عاد الى بطن الوادى الفى امين فى انتظاره حيث كان قد تركه ، ولكن ذويه ومن يلوذون بهم كانوا قد سبقوهما الآن بمسافة طويلة وغابوا عن النظر . وأخذ انطون يعطى امين القرن بعد القرن من قرون الخروب وهما يشقان طريقهما قدما ويمضغان الفصوص الصلبة ، الحلوة المذاق ، التى تشبه فى طعمها وقوامها التمر الجاف ، ويحسان لذلك بحرارة تسرى فى جسديهما اليافعين . ولم يلبث انطون بعد قليل ان كف عن الأكل كى

يبقى ما معه لبقية افراد الجماعة عندما يلحقان بهم . واحس الأعمى ان صاحبه امتنع عن مضغ الخروب فادرك ما دار بنفسه ولم يطلب من صاحبه مزيداً .

وكانت الشمس قد جنحت الآن الى الغروب . ومع انهما كانا يتصببان عرقا وهما يتعثران على طول السكة الصخرية ، الا ان الحر لم يعد يعنف بهما بمثل الشدة الوحشية السابقة . وكان الأطفال من حولهما مستمرين فى البكاء والنحيب بصورة تثير الحسرة والاشفاق . أما المسنون فما زالوا يتوقفون كلما ساروا بضع ياردات ليستجمعوا انفاسهم اللاهثة . ولكن أحداً منهم لم يعد يتهالك فيخر على الأرض كما حدث فى وقدة الهجير .. فمن خارت قواهم سقطوا فى البرية وانتهى أمرهم منذ ساعات . أما الذين لم تزل تحملهم اقدامهم فى بطن الوادى أو على جانبيه فكل الدلائل تنبىء عن وصولهم بعد قليل الى (رام الله) !

* * *

و (نعلين) قرية صغيرة جدا مقامة على مدرجات جانب التل، فوق الوادى المتصل بوادى (اللد) ، ويحف بالقرية الطريق العام . اما جانب الوادى من خارجها ففيه نبع صخرى يستقى منه أهل القرية ويسقون دوابهم وماشيتهم . وعن كثب منه بضعة من اشجار التين . اما حيث تنحدر الأرض الى مستوى الوادى تحت مدرجات التل فثمة مصاطب عريضة زرعت فيها خمائل من اشجار الزيتون .

.. وعلى هذه المحلة الصغيرة تدفق مائة الف تقريبا من الجياع العطاش المنهكين الذين اصابهم مس من الخبال لفرط ما قاسوه من مشقات الحر والظمأ ، وقد غص بهم الشارع الأوحد فى القرية فانقلب اشبه بنهر تسرى فيه موجة عريضة زاحفة متصاعدة كموجات المد ، قوامها اجساد بشرية يقطر

منها العرق . وفى نهاية ذلك الشارع — فى اعالى المدينة — وقفت تلك الحشود كأنها الجدار الصلب المتراص البنيان حول الينبوع الصخرى ، بحيث لم يجد المتأخرون موضعا لأقدامهم او فسحة من الأمل فى الوصول الى ذلك الهدف المنعش .

وقال انطون :

— قد تمضى ساعات قبل ان نقترب من هـــذا الينبوع . فهيا بنا يا امين ندور حول نطاق القرية كى نصل الى طرفها الآخر ، عسى ان نجد هناك قلبا رحيما نطرق بابه فيقدم الينا كوب ماء بارد ولقمة نتبلغ بهـــا .

وراحا يشقان طريقهما بين الحوارى والأزقة الضيقة ، ثم بين الأسيجة النباتية وصفوف نبات التين الشوكى . وصادفتهما فى الطريق جماعة صغيرة من الكلاب الهزيلة الضالة والقطط التى تتسقط فضلات الطعام من الطرقات . وفيما عدا هذا لم يجدا علامة من علامات الحياة . فقد نمى الى علم اهالى القرية نبأ سقوط (اللد) ففروا هاربين على طول الطريق الى (رام الله) .

وكانت ثمة حوانيت قليلة مفتوحة . ولكن اصحابها تركوها مفتوحة قبل هجرتهم لأنهم لم يجدوا مبررا لاغلاقها بعـــد ان حملوا معهم كل ما كان فيها من شتى صنوف السلع .

وفى وسط هذا التيه من الأزقة والمنعطفات وصل الغلامان الى مخبز صغير معتم لا يكاد يزيد حجمه على حجم كهف من كهوف الجبال . وكانت رائحة انضاج الخبز تتصاعد من داخله . فهل ترى بقى الخباز بمفرده وتخلف عن الهجرة من تلك القرية المقفرة ؟

واطل انطون برأسه يخترق بنظراته العتمة التى بالداخل ، فرأى وهج التنور الأحمر ، وقد وضعت فوق سطح التنور من الخارج كومة صغيرة من ارغفة مبططة مستـــديرة من نوع

الخبز الذى يأكله الفلاحون . ورفع انطون عقيرته بالنداء ، وانتظر ان يسمع ردا ، ولكنه لم يسمع شيئا ، فهل رحل الخباز الى غير رجعة ام انه بارح مخبزه بصفة مؤقتة ؟

أيا كان الجواب فان انطون لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه طويلا وقد ألفى امامه الخبز الطازج الساخن ، فتناول منه وأكل واعطى صاحبه فأكل ايضا . وبعد ان شبعا غادرا المخبز ، وقال انطون لصاحبه الأعمى وهما يخرجان الى الزقاق الضيق :

— المهم الآن أن نعود ونعثر على الآخرين .

وفى طريق هبوطهما كانا يتحركان ببطء فوق الحصباء الخشنة ، رعاية لحالة أمين ، فالتقيا بجماعة صغيرة من الناس اقبلت نحوهما ثم تجاوزتهما . وكان أفرادها يحملون حزما ولفائف مما ينم على جلائهم عن القرية . **وانتاب انطون شعور اليم مفاجىء بالاثم اذ خطر له ان يكون صاحب المخبز احد هؤلاء الرجال .. وان يكون الخبز الذى التهم منه بضعة أرغفة كان معدا لزاد هؤلاء الناس فى سفرهم . وامتدت يده تتحسس الأرغفة القليلة التى دسها فى قميصه ليقدمها لأفراد أسرته** . ومع اعتقاده بأن ظنه صحيح فى الغالب الا ان ذلك لم يدفعه للتفكير فى رد الأرغفة . وكان امين قد خبأ عددا آخر منها فى قميصه مع شىء من قرون الخروب . وفزع انطون عندما رأى احد هؤلاء الرجال يقف ويتحدث اليه ويسأله من أى البلاد هما . فقال له انطون : « من (اللد) . لقد اتيت انا وصاحبى الى هنا لعلنا نجد احدا يتعطف علينا فيعطينا شيئا من الماء نروى به ظمأنا . ولكننا لم نجد أحدا ! »

فقال له الرجل : « معظم الأهالى رحلوا عن القرية هذا الصباح عندما وصلت اليهم الأنباء . ولكن اسرتى قررت المجازفة بالبقاء حتى المساء على أن نسير الى (رام الله)

فى الليل لأن الطرق كانت مزدحمة بألوف المهاجرين بالنهار » .
وغمغم امين قائلا : « ان شاء اللــه » . واستطرد الرجل يقول بمرح : « سنعود جميعا بعد بضعة أيام . عندما يتحرك الجيش العراقى لنجدتنا » .
ومرة اخرى قال الغلامان : « ان شاء اللــه » .
واسرع الرجل بعد ذلك كى يلحق بمرافقيه الذين لم ينتظروه . والتفت الى الغلامين قائلا : « مع السلامة » .
فقال الغلامان : « مع السلامة » .
وشعرا بالارتياح لانصراف الرجل ، وقد زاد اعتقادهما بأنه هو الشخص الذى سرقا ما كان قــد أعده من الأرغفة لزاد أسرته ! . . وقال امين وهما يتعثران هابطين الأزقة المنحدرة : « حتى ان حرر الجيش العراقى فلسطين فلن نعود بعد بضعة أيام كما يقول هــذا الرجل . بل سيستغرق الأمر وقتا اطول من ذلك . ثم لعلنا فى النهاية لا نعود اطلاقا ! »
ولم يعلق أنطون على كلام امين . فقد كان اليهود منظمين تنظيما فائقا على حــد ما سمعه من حديث أبيه عنهم . اما العرب فلم يكونوا منظمين على الاطلاق .
ان كل ما يفكر فيــه الآن — أو بعبارة ادق كل ما يسعه الآن ان يفكر فيه — هو العثور على والديه ، ثم الوصول بعد ذلك الى النبع . ثم ان يــده التى كانت قابضة مدى ساعات طويلة على يد امين ، تؤلمه الآن ، وهو يشعر انها لن تنبسط عن آخرها كما كانت من قبل .
وعندما عاد الغلامان الى الشارع الكبير ، وجدا ان الجمع الحاشد لم يزل يشدد الضغط حول النبع ، ولكن مؤخرة ذلك الجمع كانت قد تخلخلت بعض الشىء لأن الكثيرين أدركوا عقم محــاولة وصول الجميع فى وقت واحــد الى مصدر المــاء ، فتفرقوا وجلسوا او اضطجعوا تحت أشجار الزيتون او على

افاريز الشوارع مسندين ظهورهم الى جدران البيوت على الجانبين ، قانعين بالانتظار ، **شاكرين لله على الأقل انهم لم يعودوا مضطرين للضرب على غير هدى فى هجير البرية المستعر ، بأقدامهم المتورمة بين الحصى والشوك . فهم الآن فى الأردن . فى أرض عربية .** فى ذلك الجزء من الأردن الذى كان يوما ما يسمى فلسطين ، شأنه فى ذلك تماما شأن الأرض التى الى الغرب فيما بين ساحل البحر وصفوف التلال القاحلة .

جلس الناس يحملقون فى التلال . وكانت الشمس الغاربة قد صبغت صفحة الأفق من فوقهم باللون القرمزى . ومن وراء الأصيل راحوا يحملقون فى ظلام المستقبل الذى لم يتشكل بعد . وكان نفر منهم يبكون من الاعياء والقنوط . وفريق آخر كبير العدد جلس يحدق فى جمود ، هو بداية الجمود المعهود فى اللاجئين على نطاق واسع ، حيث لا يعرفون لأنفسهم مصيرا !

وراح انطون والغلام الأعمى يشقان طريقهما نحو المقدمة بوصة بوصة . وبعد جهد جهيد وصلا فى نهاية الأمر الى الماء ، فراحا يغترفان منه فى راحتيهما ويضربان به وجهيهما ويمتصانه امتصاصا ليرطبا حلقيهما الجافين ، بأصوات عالية كأصوات البهائم عندما تشرب .. والناس من ورائهما ومن حولهما يدفعونهما طول الوقت ويجذبونهما الى الوراء .

وكانت الظلمة قد بدأت تخيم عندما غادرا النبع . وشرع انطون يشعر بالقلق على مصير والديه ، وعثر على مكان لأمين تحت أشجار الزيتون تركه فيه ثم انطلق يبحث متنقلا من شجرة الى شجرة ، متعثرا بين الحين والحين بالأجساد المستلقية على الأرض ، متلقيا اللعنات من أصحابها . واخذ يدقق النظر فى كل جماعة من الناس . ومنهم من كان يحسب

« أنطون » متسولا فينتهره كما لو كان كلبا ضالا !

واستولى عليه فجأة فزع شديد من أن والديه ربما لم يصلا بعد الى (نعلين) . ومن يدرى ؟ لعل أباه قد خارت قواه ، وامه الآن جالسة بجواره فى مكان ما من الوادى . أو لعل الأسرة كلها لم تزل متخبطة فى البرية . ما كان ينبغى له أن يجرى بهذا الطيش نحو اشجار الخروب . وان شجرة الخروب لشجرة لعينة منذ القدم ، اذ يقال ان الأرواح النجسة تطوف حولها وتسكن قرونها . ولذعته فى جلد صدره الدافىء تلك القرون الصلبة الحادة وتلك الأرغفة المستديرة المسروقة .

وشرع الفتى المسكين ينتحب وقد نفدت حيلته ، وهو يتخبط على طول خمائل الزيتون ، شاقا طريقه فى العتمه بين الأجساد المقعية والمستلقية ، متنقلا من جماعة الى جماعة ، وقد بدأت شجاعته تتخلى عنه مع ازدياد شدة الاعياء وطوفان القلق والجزع .

وعندما قبضت على كتفه فجأة يد قوية ، صرخ فى ذعر وقد اعتقد ان شخصا شريرا سيلقى به على الأرض وهو يصب عليه اللعنة والسباب ! ... واذا به يفاجأ على الأثر بصوت مألوف يصيح به :

— الى أين تظن انك ذاهب هكذا ؟ لقد لبثنا ساعات طويلة نبحث عنك فى كل مكان !

.. وفى خضم موجة طاغية من الارتياح والسرور رفع عينيه ليملأهما من وجه عمه فريد . ثم هتف وهو يلهث :

— أوه !

وتعلق بيد عمه ، ولم يستطع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة ، لأن أنفه بدأ ينزف دما مرة أخرى .

* * *

وكان الليل دافئا هادئا ساكن الريح ، لا تسمع فيه الا أصوات الجنادب التى لا تنقطع . واصوات ذلك العدد الكبير من الناس الذين يغطون فى نومهم الثقيل غطيطا مسموعا لأن الاعياء غلبهم على امرهم . وبين كل مسافة واخرى كنت تسمع نفرا قليلا من الساهرين يتحدثون بأصوات خفيضة . اما الأطفال فما أكثر ما ارتفع بكاؤهم فى جوف تلك الليلة .

وفى بعض الأحيان كان يسمع من العراء فى خارج القريه ومن جوف البريه عواء فظيع قصير يرسله ابن آوى . فتجيبه الكلاب من كل صوب بعواصف هادرة من النباح .

أما النائمون فكان منهم من استغرقوا فى الكرى وكأنهم لن يهبوا من سباتهم . ومنهم من راحوا يتقلبون كأنهم ينامون على جمر الغضى . ومن حول هؤلاء وهؤلاء أناس اسلمهم الارهاق الى الأرق ، لأن عبء الهم أثقل على نفوسهم من تعب السير الشاق ، فهم يحدقون فى أجساد النائمين عن كثب منهم فوق مدارج جانب التل ، متطلعين فى صبر نافد الى بزوغ الفجر من الأفق الشرقى .

ونامت « ماريان » . رقدت مستلقية على ظهرها فوق الأرض الصخرية وقد أنهك التعب قواها تمام الانهاك . ونامت «ماجدة» فى استغراق الى جوارها وقد تكور الطفلان الى جانبيها . أما نادية فرقدت ساهرة تبكى وتتوجع وتتوجس . واستراح بطرس مستندا بظهره الى شجرة عتيقة عجراء وقد استولى عليه شعور بأنه لن يعرف للنوم مذاقا بعد الآن . وجلس انطون بجواره وهو يخشى أن يستلقى على الأرض حتى لاينتابه النزيف الأنفى مرة اخرى . وكان فريد قد حاول أن يظل يقظا كى يؤنس وحشة اخيه ، ولكن النوم غلبه فى النهاية على امره فاستغرق فى النعاس وهو جالس .

وحملق بطرس فى الخطوط الخارجية القاتمة للتلال البعيدة ،

وقال بصوت مرتفع وان لم يوجه حديثه الى احد على وجه التخصيص :

ــ لم يستطيعوا أن يقتلونا . لم يقتلوا منا الا الطاعنين فى السن فقط والصغار جداً . لقد اخرجونا الى البريه لنموت كالكلاب ولكننا لم نمت . اننا لم نزل هنا . معظمنا على الأقل ! ولكننا أصبحنا شعبا بلا وطن !

فقال انطون : « لعل الجيش العراقى سيسارع الى تحرير وطننا فيتسنى لنا عندئذ أن نعود اليه » .

ونظر بطرس الى التألق الشاحب الذى بدأ فى محيا ولده الجالس بجواره ، ثم قال برقة : «ربما . ان شاء الله» .. ثم استطرد بعد برهة : « استلق يا بنى وحاول ان تنام . فان علينا ان نشرع فى السير مرة اخرى بمجرد بزوغ النهار» .

فاستلقى انطون بجوار ابيه ، فسحق جسده شيئا من نبات الزعتر البرى كان على الأرض التى يرقد فوقها ، ففاح منه عطر . وأحس كأنه لم يزل قابضا بيده على يد امين ، وكأنه يحس بضغط يدى امين المتشابكتين ، يكاد يحس به فوق عظام كتفه !

وقال بالانجليزية فى لهجة تفيض سعادة :

ــ انتصرنا !

.. وبعد ان اطلق زفرة استرخاء صغيرة ، استغرق فى النوم .

* * *

وكان اليوم التالى اقل فظاعة من اليوم الأول ، مع ان اليوم كان حارا .. ذلك ان اللاجئين لم يسيروا فى يومهم هذا فى السهل المنخفض ، ثم انهم يتقدمون فوق طريق ممهدة .. **اجل انها طريق متربة كثيرة الريح ولا نهاية لها ، الا انها طريق على كل حال . وقد جنبت الاقدام المتورمة المهرأة**

عذاب شق طريق لهـا بين الأحجار والصخور . يضاف الى هـذا تخففهم الآن من الخوف وقـد صاروا فى أرض يسيطر عليها العرب . أما كم من الوقت ستبقى هذه الأرض فى ايدى العرب فهى مسألة تخمين ، ولكن ليست فى الجو طـائرات يهودية ولا على الأرض ما يدل على اقتراب كتائب يهودية . وكان مفهوما أن الفيلق العربى موجود فى (رام اللـه) .

وكان الناس قد بدأوا يتوجهون الى النبع الصخرى قبل ان ينبلج النهار . وما ان اشرقت الشمس فوق الأفق حتى كان الزحام حول النبع كثيفا . وقرر الكثيرون ومنهم آل منصور أن من المستحسن عدم تضييع الوقت فى محاولة الوصول الى المـاء ، بل الأفضل ان يشرعوا فى قطع المسافة قبل ان تشتد حرارة النهـار .

وسرعان ما تضخم الجمع الحاشد فوق الطريق حتى صار موكبا هائلا .. وبعـد مسيرة نحو ساعة ونصف شوهدت سيارتان مقبلتين من جهـة (رام اللـه) ، فتفرس بطرس بنظرة حادة وقد ضيق ما بين اجفانه ، ثم قال لزوجته ماريان التى تسير الى جواره :

— قد تكون احداهما لنا . فلا بد أن « خليل » بلغته انباء (اللـد) فى الليلة المـاضية .. فان كان البنزين متوفرا لديه فلا بد ان يكون قد ارسل سيارته لتأتى بنـا .

وتراجع النـاس على جانبى الطـريق عنـدما اقتربت السيارتان ، وكانت احداهما « بويك » سوداء كبيرة والأخرى « شيفروليه » كستنائية اللون . واخذت السيارتان تشقان طريقهما ببطء بين الجموع . ومضى بعض الوقت قبل أن تصلا الى جماعة آل منصور . وعندئذ صاح بطرس :

— أحمد ! سائق خليل !

وكان فريد قـد عرفه ايضا فى اللحظة نفسها فصاح مثل

اخيه بسرور بالغ .. ووقف السائق ، وتكدست ماريان وماجدة ونادية فى المقعد الخلفى ، وجلس بطرس وفريد فى المقعد الأمامى بجوار السائق ، بينمـا تعلق انطون بالمؤخرة .. وصاحت ماريان تأمر السائق : « بسرعة ! والا فان الغوغاء سيحاولون الركوب معنا ! » .

وصاح انطون محتجا : « لا مكان لأمين ؟! »

وكان لم يزل قابضا على يد الغلام الأعمى فوق كتفـه .

وقالت ماجدة بحزم : « أمين يجب ان ينضم الى بقية الخدم . فاننا ان أخذناه معنا فلا بد ان نأخذهم جميعا ! »

فقال لها انطون : « ولكننا لا نعرف اين الآخرون » .

وكانت ماجدة قـد تكلمت بالعربيه ، فقال امين بسرعة : « لا بأس . ان كل انسان هنا وجهته (رام اللـه) . وسيقبل اى واحد منهم ان يمشى معى » .

وحاول ان يخلص يده من يد انطون .. غير ان انطون زاد بها تشبثا وصاح فى اصرار : « ان أنت مشيت فكذلك سأمشى أنا ! » .

وصاحت به ماريان فى ضراوة وقد فطنت الى الوجوه التى اخذت بالفعل تتجمع عند نوافذ السيارة : « اركب ! تستطيع ان تحشر نفسك بيننا . ويستطيع امين ان يجلس على أرض السيارة تحت اقدامنا » .

وركب الغلامان ، وصفق الباب ، واستأنف السائق السير الى الأمام باحثا عن مكان يسمح له بالدوران . وكان عدد من الناس قـد اخذوا يلوحون بقبضات ايديهم فى اثر السيارة « البويك » . اما السيارة « الشيفروليه » فمشت خلفهـا وهى فارغة لأن الذين ارسلت لتـأتى بهم كانوا فيما يبـدو على مسافة ميل او اكثر فى مؤخرة الموكب الذى لا ينتهى .

ووجه بطرس الى السائق هذا السؤال :

— كيف الحال فى (رام اللـــه) ؟

فأجابه السائق قائلا :

— حال فظيع ! فقد وصل اليها ألوف من اللاجئين فى الليلة الماضية ولم يكن فى المدينه ما يكفى لاطعامهم . وقد وزع عليهم الخبز من مخازن الفيلق العربى هــذا الصباح . جلوب باشا هو الذى امر بذلك فيما يقولون .

فسأله بطرس : « أهو موجود هناك ؟ »

فأجاب السائق : « لا . انه فى القدس . ولكنهم اتصلوا به تليفونيا هناك . وكان النـــاس يرجمون العساكر بالحجارة بالأمس عندما جاءتنا انبـــاء استيلاء اليهود على (اللـــد) و (الرملة) » .

وكانت نبرة صوت السائق تدل على الرضى بمـــا فعلـه النـــاس بالعساكر . ولكن بطرس لم يعلق . فالمرارة كانت شديدة الى درجه لا يتصورها العقل . لأن كل انسان كان يعتقد أن السيارات المسلحة الثلاث التى ناوشت طليعــة الكتائب الاسرائيلية على مشارف مدينة (اللـــد) كانت طلائع القوة الزاحفة لتخليص المدينه من اليهود . ولكن هذه الآمال لم تتمخض عن شىء ، ولم يظهر من كتـــائب الفيلق العربى طابور واحد ، فاقتصرت المناوشات على مشارف المدينة . أما قوات اليهود فكانت متفوقة فى العدة والعدد . فماذا تجدى ثلاث سيارات مسلحة فى دفع غائلتهم ؟

كان بطرس يعتقد انه عندما يكتب تاريخ الحرب العربيــة الاسرائيلية سيذكر فيها أن جنود الفيلق العربى كان من الممكن ان يقاتلوا ببسالة ضد قوات معادية تفوقهم عــددا وعدة . واذا رجم الأهالى المدنيون المستنكرون العســاكر العـــرب بالحجارة وحصبوهم بالحصى . لقد فعل المدنيون هذا وهم لا يعرفون شيئا بالبـــداهة عن المشكلات الحربية . وأحس

بطرس غصة شديدة لأن جرحا جديدا قاسيا قد أصاب الروح الفلسطينية التى اثخنتها الجراح من قبل .

ولما تسنى للسيارتين أن تدورا لتعودا صوب (رام الله) افسحت الحشود الطريق لهما على مضض واستياء .

وقالت ماريان لنفسها فى أسى يائس :

ـ انهم يشعروننا بالاثم لتمتعنا بهذا الامتياز عليهم . ولكن هكذا كانت حالنا دائما ، وقد قضت أسرتنا عمرها كله محظوظة منعمة .

وشعرت بارتياح شديد عندما التقوا فى الطريق ببضع سيارات اخرى قادمة من (رام الله) . وان كان اسطول كامل من السيارات لا يمكن ان يفى الا بنقل حفنة من عشرات الألوف من اولئك المنهكين المتورمى الأقدام ، الجائعين العطاش ، المتصببين عرقا والمنزوفين جهدا ودموعا ، ممن كان عليهم ان يواصلوا السير بمشقة وبطء فوق طريق تسفيها الرياح بعاصفة من الغبار الكثيف ، وهم يقتربون من نهاية سيرهم المنكود الى (رام الله) .

— ٥ —

ومن قبل وصول كتلة المهاجرين الرئيسية من (اللد) و (الرملة) كانت مدينة (رام الله) الجبليه الصغيرة مسرحا لمنظر عجيب ، لألوف المشردين الذين لا ديار لهم وهم يتدفقون فى شارعها الرئيسى الضيق باحثين عن الطعام والمأوى .

وتحت كل شجرة زيتون فوق مدارج التل كنت ترى أسرة قد عسكرت هناك . وفى كل حديقة وعلى طول كل جدار أو سياج فى شوارع الحي السكنى التى تظللها اشجار الصنوبر كنت ترى خياما بدائية مصنوعة من الخيش القديم وخرق الثياب المهلهلة لتأوى تحتها رجالا ونساء وأطفالا فتمنحهم احساسا وهميا بالملاذ .

وكان الهلال الأحمر المصرى قد نظم بالتعاون مع الشرطة والجيش توزيع الطعام والبطاطين والخيام . بيد أن ذلك « الخروج » الكثيف الواسع النطاق لم يكن متوقعا من قبل وبهذه السرعة ، ولذا لم تكن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهة مثل ذلك الطوفان . اذ كان الاعتقاد السائد على نحو ما أن (اللد) ليس من المعقول أن تسقط فى ايدى اليهود . ولذا كانت الموئل الذى لجأ اليه الناس من المناطق المحيطة بها يلتمسون الأمان من عدوان اليهود وبطشهم . وكان بها حرس قومي قوي . وكل رجل من سكانها قادر على حمل السلاح كانت لديه بندقية . وفى الوقت الذى كانت فيه ضجة المعارك تتصاعد قعقعتها من كل مكان حولها كانت (اللد) نفسها آمنة وادعة ، والناس فيها يؤمنون بأن النجدات العربية سوف تصل عما قريب فترد الاسرائيليين على أعقابهم الى

البحر . بل وتلقى بهم فى لجته فينتهى أمرهم الى غير رجعة .
ولكن وا أسفاه . بدلا من الالقاء بالاسرائيليين الدخلاء الى قاع اليم كان الفلسطينيون هم الذين سيقوا سوق الأنعام صوب الشرق وألقى بعشرات الألوف منهم فى لجـة البرية الرملية الصخرية ، لجـة العطش الذى لا ترويه قطرة ماء واحـدة !

وكانت (رام اللـه) هى التى تلقت الصدمة الأولى لهذه الكارثة الانسانية الكبرى ، فترنحت تحت وقع تلك الصدمة ، بيد انهـا ثابت الى رشدها سريعا وشرعت فى تنظيم جهودها لملاقاة هـذا الرزء الداهم . واقبلت سيارات النقل التابعة للجيش من عمـان التى تقع على مسافة بعيدة فوق التـلال القـاحلة فى الضفة الأخرى من وادى الأردن الكبير ، اقبلت محملة بأكياس الدقيق . وكانت مكبرات الصوت فى الشوارع تقوم بتوجيه الناس الى مراكز التوزيع . وسرعان ما تحولت مدرسة الأصدقاء الأمريكيين للبنين ببنيانها الكبير الى مستشفى مؤقت وعيادة لعلاج المرضى والجرحى الذين تمخض عنهم هذا « الخروج » الفظيع ، ولرعاية الأطفـال الكثيرين الذين جاء أمهاتهم المخاض قبل الأوان فى تلك المسيرة الرهيبة ، فتعرضت حياة اولئك الأمهـات المنهكات لحمى النفاس بمضاعفاتهـا الوبيلة جميعـا !

وهاجم الناس خمائل الزيتون والبسـاتين والكروم للحصول على أخشاب يشعلون بها نيرانهم . ومن الطبيعى ان اصحابها تأذوا الا انهم استنجدوا بكرم الضيافة العربى المأثور ليتجلدوا ويقولوا للنـاس باسمين :

ــ تفضلوا . الدار داركم !

اذ كيف يمكن لأحد أن يرد هؤلاء الجياع المحرومين المشردين خائبين ؟ ان امم العـالم قـد اصدرت قرارا جائرا باعطـاء

وطنهم لليهود ، وها هم اليهود قد وضعوا اياديهم عنوه على ديارهم وأراضيهم . فليكن الله فى عون تشردهم وجوعهم . وكل من بيده شىء فى (رام الله) كان يبيحه اياهم قائلا :

ـ تفضلوا !

* * *

وأخذت السيارة الكبيرة البويك السوداء تشق طريقها ى الشارع الرئيسى المكتظ بالناس فى المنطقة السكنية الراقية حيث تلقى أشجار الصنوبر ظلالها . وتحت كل شجرة منها معسكر مرتجل لايواء حفنة من اللاجئين بصورة او بأخرى . وكان « خليل داود » قد بعث بهذه السيارة يقودها سائقه الخاص فى ساعة مبكرة من هذا الصباح على أمل ان يعثر السائق على أصهاره وهم شقيقا زوجته بطرس وفريد منصور وزوجتيهما وسائر افراد اسرتيهما فى المرحلة الأخيرة من تلك المسيرة الطامية .

وعندما وقفت السيارة أمام بوابات فيلا داود القائمة بمنجاة من الطريق العامة فى نهاية حديقة مترامية حافلة بالأشجار المزهرة وبساتين الفاكهة ، أخذ الناس المتناثرون تحت مظلات من الخيش القديم مثبتة فى قضبان سياج الحديقة ينظرون اليهم بغيظ وحرد . كانت نظراتهم تقول بأجلى بيان :

ـ هؤلاء حقا هم المحظوظون ، لأنهم قطعوا جزءا على الأقل من مسيرة الخروج بالسيارة ، ولهم هاهنا بيت وأسرة يلجأون اليهما ...

وخليل داود رجل وسيم طويل ذو بشرة شقراء ، ارستقراطى المظهر ، يتحرى الرسميات فى سلوكه حتى ان من لا يعرفونه عن كثب كانوا يعتقدون انه فاتر بارد الطبع ، فى حين انه كان فى الواقع رجلا على جانب كبير من كرم الخلق والسخاء والرقة الفطرية .

وهو من كبار ملاك الأراضى وذو ثروة طائلة . وزوجته « منى » لها محاسن آل منصور وسحرهم . وفيها شىء من سرعة الغضب التى يتصف بها شقيقها الأكبر بطرس . ولما كان خليل مسلما فقد استاء رؤساء الأسرتين فى البداية أعمق الاستياء لعقد ذلك الزواج ، فيما عدا بطرس الذى كان فى تلك الفترة زوجا مهجورا ، لأن زوجته الأولى التى كان متزوجا منها فى ذلك الوقت كانت قد فرت مع رجل اصغر منه سنا .. وفيما عدا فريد الذى كان ملحدا متمردا مع انه متزوج من امرأة متدينة يصل تدينها الى درجة الايمان بالخرافات والخزعبلات ، على طريقة ايمان العجائز .. وقد طرب خليل داود عندما رأى بطرس وقد قارب الخمسين من عمره يصيب شيوخ الأسرة بصدمة عنيفة اخرى عندما تزوج من امرأة انجليزية اصغر منه بعشرين سنة الا أنها تعتبر من وجهة نظر اولئك الشيوخ المتزمتين عجوزا ، ثم هى فوق هذا وذاك أجنبية .

وكان انطون يشعر بشىء من الخوف من آل داود ، أى من زوج عمته خليل ذى المظهر المتعالى ، ومن عمته « منى » بابتسامتها ودماثتها التى تشوبها فجأة ثورات غضب ، ومن البنات الأربع بنات عمته ، وكانت صغراهن تقاربه فى السن ، اما كبراهن ففتاة كبيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، لها نظارة ذات اطار ، ويوحى مظهرها ولهجتها بأنها تعرف كل شىء فى الدنيا ولا تطيق ان تشغل نفسها بأى انسان ليس فى مستواها العلمى !

وكانت زوجة بطرس الانجليزية ماريان تميل الى زوج أخت زوجها — خليل — ولكنها ترى « منى » متعبة ، وترى بناتها غير جذابات بصورة واضحة ، رغم ما يتمتع به والدهن من

جمال الشكل الملحوظ. **ومن الممكن ان يظنهن الناس انجليزيات — فيما تعتقد — بسبب لون بشرتهن الأشقر ، وأسلوبهن غير المبالي ، وعدم لباقتهن فى التصرف امام الناس !**

أما بطرس فكان يحب اخته « منى » ويغفر لها ما ينتابهـا من هياج وغضب ، لأنه يعرف فيها النسخة الأنثوية من ذاته . ولم يكلف نفسه عناء محاولة فهم خليل ، الا انه كان يتحرى احترامه ، لثرائه الطائل وارستقراطيته ، فهو من المؤمنين بما للعائلات العريقة من مكانة مرعية . ولا سيما ان هذا الثرى الارستقراطى زوج اخته .

وأقبلت « منى » تجرى بأسلوبها المندفع لترحب بهم ، ومن ورائهـا اقبل خليل فى اناته وتصلب قامته وهيبته وجلاله ، الا أن ذلك لم يمنعه من تقبيـل صهريه فوق الخدين ، ومن تقبيل يدى المرأتين ، ومن تربيت خدى انطون باعزاز تربيتا هينـا . وتعـالت من الجانبين صيحات الترحيب والتأهيل والتأسى والاستفسارات ، ثم سار الجميع فى موكب صغير تحت « برجولا » تعرش فوقهـا أعواد نبات « الجهنمية » صوب الفيلا البيضاء المكللة بالنباتات المتسلقة الخضراء ذات الأوراق التى تشبه أوراق الكرم .

وارتقوا جميعا الدرجات الرخامية البيضاء الى شرفة واسعة تناثرت فوقها المناضد والمقاعد فى تنسيق بديع ، وألقى آل منصور بأجسادهم على تلك المقاعد ، وجىء اليهم بالمشروبات المثلجة . وأخذت احدى الخادمات طفلى نادية لتمضى بهمـا الى مكان آخر ، وأرادت ان تأخـذ معها امين ايضا ، ولكن انطون اصر على بقائه معهم ، وقال فى تبرير ذلك الاصرار :

— انه صديقى .

فسألته عمته منى : « وأين اسرته ؟ »

فبادرت ماريان قائلة بسرعة :



« .. واقبلت « منى » تجرى باسلوبها المندفع لترحب بهم .. »

— سيصلون فيما بعد . وهم يعلمون أين نحن . فهم فى خدمتنا . دعيه مع أنطون الآن ، فقد سارا معا متلازمين طول الطريق .

وعندئذ وضع خليل داود يده على ذراع الغلام الأعمى وقال له بحنان واضح :

— مرحبا بك . أنت هنا فى دارك .

فقالت ماريان :

— نحن جميعا فى حاجة الى الاستحمام .

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة فجأة وبلا سبب .

* * *

ولم ينم نوما عميقا من بين جميع نزلاء بيت داود فى تلك الليلة سوى بطرس وحده الذى أنهكت قواه تلك المسيرة الشاقة وسهره طول الليل فى العراء فى الليلة الماضية على مدارج التل فى مشارف قرية (نعلين) . وبلغ من عمق نومه أن غطيطه العميق الرنان نفذ الى سمع ماريان التى رقدت مؤرقة العينين فى الحجرة المتصلة بحجرته ، فزاد ذلك من توتر أعصابها .

اما نادية فرقدت مع طفليها فى حجرة اخرى ، وراحت تتساءل طول الليل متى عساهم يفرجون عن « نصرى » الذى احتجزه الاسرائيليون ، ومتى عساه يصل الى (رام الله) . وهل تراه فى ثورة العار والغضب حريا ان يقتلها عندما يعلم ما وقع لها ، أم ان الأحرى بها ان تقتل نفسها قبل عودته حتى لا تواجهه بمذلتها ؟ !

وكانت هذه الأفكار تنتابها طول الليل وتتخللها ومضات من الرجاء تتخيل فيها أن عودة نصرى قد تأخرت الى ان يقدم لها مرور الزمن الدليل الحاسم على انها لا تحمل فى أحشائها ثمرة ذلك الفعل الفظيع الذى وقعت جريرته عليها ، وأن

نصرى لا حاجة به الى أن يعلم شيئا عن تلك المصيبة برمتها .
بيد ان الخوف كان يلقى ظلاله القاتمة دائما على تلك الومضات من الرجاء . وقد حاولت أمها وحاولت ماريان ان ترفها عنها قائلتين انه اذا تبين انها حامل فان نصرى وأباها حريان ان يذهبا معا الى طبيب فلسطينى فيخبراه بما حدث ويطلبان اليه أن يجهضها . وما من طبيب فلسطينى يسعه فى هذه الحالة ان يرفض هذا الطلب الانسانى والوطنى فى هذه الظروف .

ولما أغلقت عينيها تراءت لها مرة اخرى صورة وجه ذلك اللبنانى الأمريكى اليهودى الشاب وهو يضحك مزهوا بانتصاره الوضيع عليها ، فجعلت تقلب رأسها فوق الوسادة من هذا الجانب الى ذاك الجانب وهى تئن من عذاب نفسى مستعر .

وفى الحجرة الملاصقة لحجرتها رقد والداها . وهما أيضا لم يغمض لهما جفن طول الليل . لأن ماجدة أفضت بالنبأ الفاجع الى فريد بعد أن أويا الى حجرتهما .
وقالت ماجدة تستحث زوجها على السكوت عما اصاب ابنتهما :

— ان لم يصل نصرى الى هنا فى وقت قريب جدا فقد يتضح لنادية أن كل شىء على ما يرام . وفى هذه الحالة لا حاجة بنصرى الى ان يعرف شيئا عن هذا الموضوع اطلاقا. فلماذا نسبب له عذابا لا ضرورة له ولا مبرر فى هذه الحالة ؟ وبعد عشرة ايام تقريبا ستكون نادية قد عرفت كل شىء .
فقال فريد بوجوم :

— يحسن اذن أن تصلى لله بحرارة كى لا يعود نصرى قبل ان تكون نادية متأهبة لاستقباله وقد ثبت أن كل شىء على ما يرام . ولكن اذا عاد قبل أن نعرف على وجه اليقين

أهى حامل أم لا فمن الخير فى هـذه الحـالة أن يقوم خليل بابلاغ الأمر اليـه !

فقالت له ماجـدة بشىء من الدهشة : « ولمـاذا خليـل بالذات ؟ لمـاذا لا يقوم باخبـاره بطرس باعتبـاره رأس الأسرة ؟ » .

فأجابها قائلا : « ان بطرس سيجد هـذا الموقف مزعجا له ازعاجا يتجاوز طاقة احتمـاله . أما خليل فهـادىء بارد الأعصاب ، على الصورة التى تنبغى لمحام أو طبيب يعـالج الأمور معالجه موضوعيه . فمن الخير أن يتلقى نصرى الخبر منـه .. » .

ورقدا على ظهريهما فى الفراش الواسع ، وقد مد كل منهما ذراعيه بمحاذاة جنبيه مسترخيين ، لاراحة اقدامهما المتورمة وقـد وجدا فراشا يرقدان عليه بدلا من جانب التل الصخرى الذى أرقهما فى الليلة السابقة . فالاستلقاء على الظهر صار فى حـد ذاته نعمة . وكانت النعمة حرية أن تكتمل لولا ذلك القلق الموجع الذى تثيره نادية . **نعم لولا هذا القلق لاستطاعا أن يستغرقا فى النوم بكل سهولة بعـد طول العناء . ولكن التفكير القاتم أبقى عيونهما مفتوحة تحملق فى الظلام . وكان فريد يغفو بين حين وآخر ، بصورة متقطعة ، أما ماجدة فكانت كلما هومت للنوم انتبهت مذعورة وهى تخال انها سمعت نادية تنتحب فى الحجرة المجاورة .**

وفى مؤخرة البيت ، فى حجرة تطـل من الطابق الأول على حديقة بهـا نافورة وأشجار برتقال صغيرة ، استلقى خليل فى الفراش وقد عقد يديه تحت رأسه ووجهه صوب ضياء القمر فى الخارج . وكانت أشجار الياسمين تحدق بفروعها اللدنة بالنافذة وتفعم هواء الليل الدافىء الساكن بعبيرها الفواح ، وأصوات زيزان الحصاد ــ تلك الحشرات الصغيرة الشفافة ــ

تنساب فى الظلام آتية من بعيد .

وكانت منى جالسة بجواره متكئة على عدد من الوسائد وهى تدخن سيجارة ، ووجهها أيضا صوب النافذة وضياء القمر . وكانا قد تناقشا بالفعل فى كارثة نادية مع بقية الأسرة ثم فيما بينهما ، فلم يبق مجال لمزيد من الكلام فى هذا الخصوص . لأنه اذا تمخض الموضوع عن أسوأ احتمالاته فلدى خليل صديق حميم من الأطباء الفلسطينيين ، وهو واثق انه سيضع حدا لذلك الحمل السفاح . وخليل ايضا سيتحدث الى نصرى عندما يصل بعد اطلاق سراحه ، ومن المؤكد انه لن يشعر الا بالرثاء لحال زوجته المسكينه .

لقد زلزل كيانهما وانزعجا غاية الانزعاج لذلك الحادث الوخيم ، ولكن ثمة مسألة أولى بالنظر والبحث عن حل لها . فالسؤال الآن هو : هل من المنتظر أن يهجم اليهود على « لطرون » بعد أن احتلوا اللد والرملة ؟

ولطرون تقع عند تقاطع طريقين أحدهما يفضى الى رام الله ، والآخر يفضى الى القدس . ويقال أن قوات من الفيلق العربى لم تزل فى لطرون . ولكن بدأ يتضح للناس ان قوات العرب تواجه فى كل مكان قوات من العدو تفوقها عددا بكثير .

وسقوط لطرون معناه أن الطريق صارت مفتوحة الى رام الله . ورام الله قد صارت الآن مكتظه الى اقصى حد باللاجئين . فهل سيقع خروج آخر ، وجهته فى هذه المرة مدينة (أريحا) التى تقع على انخفاض ١٢٠٠ قدما تحت مستوى البحر ، والحر فيها لا يتصوره العقل فى شهر يوليه ؟

هل سيكتب عليهم جميعا — آل داود وآل منصور — أن يبادروا بالخروج من البلد الآن ، منتهزين فرصة خلو الطريق فى الوقت الحاضر ؟

ان بطرس يمتلك بيتا هناك يتسع لهم جميعا . وكانت منى في حالة عصبية سيئة بعد الحكايات المؤلمة التى سمعتها عن الهجرة من اللد ، ثم أن القلق ساورها بخصوص بناتها الأربع . وكان من رأى بطرس انهم ينبغى ان يبادروا الآن بالمسير الى أريحا . ففى عزمه ان يتوجه الى هناك مع ماريان وانطون فى الغد اذا وجد أن الجميع قد ظفروا بكفايتهم من الراحة .

واشار خليل اشارة تدل على نفاد الصبر وقال :

ـ بطرس متقدم فى السن . وقد نالت من أعصابه تلك التجارب التى مر بها . ان اللد والرملة سقطتا فى يد اليهود لأن احدا لم يحاول الدفاع عنهما . أما منطقه لطرون ففيها قوة كبيرة من الفيلق العربى . وسيكون أمامنا متسع من الوقت للنزول الى أريحا فى حالة سقوط لطرون . وان كنت لا اعتقد انها ستسقط .

وأشاح برأسه . وكان ضوء القمر يسقط مباشرة على وسائدهما ، فاستطاعت « منى » أن تراه يبتسم ابتسامته اليسيرة المستهينة ، ثم قال لها :

ـ لماذا كل هذا القلق ؟ انك تؤكدين انك تؤمنين بالله ، فلماذا لا تثقين به وتكلين الأمر اليه ؟ ان الله رحيم بالعباد لطيف بهم . أليس كذلك ؟

ومد اليها يده وأردف قائلا :

ـ لماذا لا ننام قليلا ؟

فأطفأت سيجارتها ورقدت بجواره ، ثم عابثته ببضع كلمات ووضعت رأسها على كتفه واحاطت جسده بذراعها ، فلم يتكلم ولم يتحرك .. وسرعان ما استغرقه النعاس .

وكانت منى تحسد زوجها خليل على ما يتمتع به من هدوء فى عقله وجسده . وقالت لنفسها :

— نحن آل منصور عصبيون لا يقر لنا قرار . ونعتز بأننا مسيحيون كأنما ذلك حجة ناهضة على مزية خاصة فينا ، مع ان المسألة كلها لا تعدو ان تكون صـــدفة ناتجة عن الولادة لأبوين مسيحيين . فالأمران فى النهاية سيان . وكلنا عرب ، والدين للديان .

ولكن خليل ليس شديد الايمان بالدين . ويؤثر ان يكون ضميره الشخصى هو مرشده والرقيب عليه . ولكنه بحكم تربيته وعاداته عربى مسلم .

واخذ الكرى يداعب اجفان ((منى)) بعد التفكير قليلا فى تلك الخواطر ، وفى العداوة التى ينقم بهـا اليهود على المسلمين والنصارى على السواء ما داموا عربا .. ولمـا استيقظت فى الصباح وجدت خليل قد نهض منذ بزوغ النهار كالعادة وغادر الحجرة ، فضغطت على الجرس فأتتها الخادم بالقهوة التركية. وقبل ان تفرغ من تناولها الفت ماريان واقفة بجوار فراشها يبدو عليها الانتعاش وهدوء الأعصاب بصورة مذهلة . وكان ثوبها قد غسل اثناء الليل . وقالت لها ماريان ان بطرس مصر على الهبوط الى اريحا . وانه قد اتصل بالفعل تليفونيا ببيته هناك . وان خليل قد امر السائق احمد ان يقوم بتوصيلهم.

— ٦ —

كان الذهاب من بلد يرتفع فوق مستوى سطح البحر بمقدار الفين من الأقدام الى (اريحا) التى تنخفض عن مستوى سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ قدما ، فى حرارة اواسط شهر يوليو ، عملا اعترض عليه الجميع — فيما عدا ماريان — ووصفوه بالجنون ، اذ لماذا يهبط اناس مالكون لقواهم العقلية السليمة من جو التلال العالية المنعش الى جوف ذلك الجحيم الصحراوى ؟

وراحت ماريان ترد على هذه الحجه باصرار قائله ان نشدان راحة البال ليس عملا جنونيا ، ولا سبيل الى راحة بال بطرس فى (رام الله) التى تقع على الطريق الرئيسية المباشرة من (لطرون) المهددة باحتلال اليهود لها ، هذا فضلا عن اكتظاظ شوارعها باللاجئين . وزادت ماريان على ذلك ان بطرس قد عانى من العذاب ما فيه الكفاية . وايدت قولها هذا بالدموع التى جالت فى عينيها من فرط ما منيت به شخصيا من الاعياء العصبى والجسدى . فلئن كانت (اريحا) بجوها القائظ هى ما يصبو اليه كى تطمئن نفسه ، فمن الواجب ان يذهب الى هناك ، ومن الواجب ايضا ان تذهب الى هناك معه زوجته وابنه .

بيد انها كانت تعلم ان ذلك ليس كل ما فى الأمر . اجل ان حالة الانهاك التى يعانى منها حقيقة واقعة . وحقيقة واقعة أيضا انه لا يشعر بالأمان فى (رام الله) ، وانه يجفل اشد الاجفال من مجرد احتمال تعرضه لمحنة اخرى على يد الاسرائيليين ..

وحقيقة واقعـــة ثالثة ان جو (رام الله) بكل من تغص بهم من خليط اللاجئين ، بتعاستهم وضياعهم ، كل ذلك ثقيل الوطأة على اعصابه. ولكن ما هو اهم من تلك الدوافع كلها رغبته بل حاجته الماسة الى الهرب من لقاء الناس .

لقد امضوا الأسابيع الأخيرة فى بيتهم باللد وهم يعيشون ليل نهار محوطين بأناس مروعين جزعين قلقين ، ما بين اقارب واصدقاء وغرباء عنهم تماما جاءوا كلهم يلتمسون المأوى فى البيت الكبير ، فعاشوا جميعا فى جو الخوف ، ملتصقين بعضهم ببعض ، يسيطر عليهم توتر مستمر .

وكان الاسرائيليون يطبقون على المدينة فى فترة الأيام الأخيرة، ولا يفارق اذهان آل منصور الفزع الرهيب مما حدث فى (دير ياسين) منذ بضعة اشهر فقط ، حينما أعد اليهود مذبحة شائنة شملت القرية كلها على ابشع صورة ممكنة. وظلت هذه الصورة تلح على مخيلة الناس ، فما حدث على بعد بضعة اميال من القدس ، من الممكن ان يحدث فى مدينه (اللد) العزلاء ! ..

ولقد اوشك العبء العصبى لتلك الأيام الأخيرة فى (اللد) ان يتجاوز طاقة الاحتمال البشرى ، والناس موزعون بين الخوف من المذابح وبين القصف المستمر بالقنابل وبين اصوات الطلقات النارية ..

حدث كل هذا والناس فى بيتهم متلاصقون ، فلا مجال لاختلاء المرء بنفسه كى يبكى او يصلى او ينفس عن عواطفه ببثهـــا لمن يحب . وهـــذا الحرمان من الخلوة اشد وطأة على بعض الناس مما هو على بعضهم الآخر . وبطرس ممن كانت هـــذه الحالة بالنسبة لهم عذابا لا يحتمل .

ومع ان مجموع الناس فى دار خليـــل اقل من اثنى عشر شخصا ، وكلهم من خاصة اهل الأسرة الأقربين ، الا ان بطرس كان يحس مع ذلك ان عددهم اكثر مما ينبغى . وان التوتر

اشد مما يطيقه . فلم يسبق قط ان كان الاتصال بينه وبين زوج اخته حميما او مستمرا على هذا النحو ، والفتيات الاربع — بنات اخته — كن يزعجن اعصابه بكثرة ضحكهن المجلجل.

اجل . كل انسان وكل شيء كان يزعج اعصاب بطرس ، فيما عدا زوجته وابنه . وكان يريد — بل انه بعبارة أدق كان بحاجة الى — ان ينفرد بهما. وكل ما تسببه حرارة (اريحا) من التنغيص لن يكون شيئا مذكورا فى نظره : **فأريحا بلد يأمن فيه على نفسه وذويه . وهى ليست غاصة بضحايا الارهاب اليهودى الغاصب من اللاجئين المشردين . وفى اريحا سوف يكون فى مقدوره ان ينعم بالهدوء والوحدة مع الشخصين الأوحدين اللذين يشعر حقا انهما يعنيانه من كل قلبه .**

كانت ماريان مدركة لهذا كله ، لأن هذا الحل كان يوافق حالتها العصبية المرهقة . وانها لتعلم ان الحر فى اريحا لا بد ان يكون قاسيا جدا ، ولكنهم فى الوقت نفسه سيشعرون بالأمن والطمأنينة ، وستسترخى اعصاب بطرس ، وسينعمون ببركة العزله .

اما انطون فانه شعر بارتياح عندما علم انهم سوف لا يبقون فى (رام الله) . فهو ايضا لم يشعر بالأمان هناك . فهو لم يكن على سجيته قط مع اقاربه من آل داود . ثم ان بيتهم فى اريحا يعتبر بمثابة دار ثانية لهم ، وفى وسع امين ووالديه ان يهبطوا معهم الى اريحا ليكونوا بمثابة خدم لهم ، وبذلك يظل هو وامين متلازمين . وسوف لا تبدأ الدراسة بالنسبة لكليهما قبل اواخر سبتمبر . وحتى ذلك الحين من يدرى ماذا سيحدث ؟ ربما يكونون قد عادوا الى موطنهم فى (اللد) ، هم وبقية هؤلاء الناس جميعا ..

واستقر رأى بطرس على سلوك طريق الوادى الى اريحا ، وهى طريق من الدرجة الثانية ، وعرة ، ضيقة ، صخرية فى

بعض مواضعها . يضاف الى هذا انها كثيرة المنعطفات ، ولذا تستغرق مدة اطول . الا ان الطريق الرئيسية الجيدة تخترق قلب مدينة القدس ، وثمة معارك ناشبة فى المدينة القديمة . واليهود يستخدمون فى تلك المعارك قذائف المورتار الثقيلة . ومن ثم لم يكن من الممكن لأى شىء فى الدنيا أن يغرى بطرس باختراق القدس ، وان كان فريد — الذى قرر البقاء فى رام الله — يجادله فى ذلك قائلا ان وجود الفيلق العربى هناك سيكفل لهم حمايه اعظم مما يمكن ان توفره لهم تلك الرحلة فى صميم الريف . وكان الطريق الى اريحا لم يزل مفتوحا ، اما هناك فى الوادى فمن الجائز ان يحدث لهم اى شىء !

ورد عليه بطرس قائلا ان اى شىء يمكن ان يحدث فى اى مكان . هذا صحيح ، ولكن الأخبار تتواتر بأن القنابل تصب على مدينة القدس بلا انقطاع ، وان اليهود متربصون فى كنيسة «نوتردام» ومعهم المدافع الرشاشة يطلقونها على الناس من نوافذ الكنيسة . وانها لمصيبة ان يفلتوا من الخروج الكبير المهلك فى اللد كى تصرعهم المدافع الرشاشة او شظايا القنابل فى القدس . اما فى الوادى فليس من المنتظر ان يلتقوا بأى انسان سوى اللاجئين من البدو .

وتنبأ لهم خليل بأنهم سيعودون بعد اسبوعين او ثلاثة الى رام الله فى طريقهم آيبين الى بيتهم فى اللد ، وقال بلا مبالاة :

— لأننا سنكون قد القينا باليهود الى البحر .

فافتر فم بطرس عن ابتسامته الهينة التى يمتزج فيها الأسى بالحزن ، واجابه قائلا :

— اراك تتحدث كما لو كانت لدينا جيوش قوية تحت تصرفنا ! مع انه لم يكن لدينا من القوات مانبعث به لحماية اللد والرملة !

فقال له خليل : « لم يكن لدى الفيلق العربى عدد كاف من القوات ، ولكن العراقيين لم يدخلوا هذه المنطقة بعد . »

فأجابه بطرس : « اتمنى على اللـــه أن يصلوا فى الوقت المناسب . »

وغضبت منى ، لأن بطرس كان فيمـــا يبدو حريصا على مخالفة خليل فى الرأى على الدوام ، وقالت بحدة :

— ان هذه الروح الانهزامية لن تساعد على حل الأمور !

فأجابها أخوها باسما :

— من الخير دائمـــا أن يكون المرء واقعيـــا فى نظره الى الأمور ..

وصاحت ماريان وهى تحاول يائسة أن تكون على الحياد ، كما ينبغى لضيفة مهذبة :

— ومن أين لأى واحد منا ان يدرى ؟ العسكريون وحدهم هم الذى يعلمون مكان القوات ، ومدى استطاعتها !

لقد كان من المجدى حقا لراحة اعصابهم أن يرحلوا بعيدا عن بيت آل داود ، وعن (رام اللـــه) الغاصة بالخلق عن آخرها .

* * *

وبعـــد الخروج من البلدة درجت الطريق على طول الحافة العليا لخور عميق يقع بين التلال العالية ، فصار فى وسعهما أن ينعما بشىء من استرخاء الأعصاب .

وكانت التـــلال والوادى من تحتها مكسوة بالخضرة ، وفى الوادى مواضيع متناثرة من الحقول المزروعة . والأغنام ترعى نباتات يانعة يطلقون عليها البرسيم الحجازى .. وهنا وهناك مربعات أنيقة بها بساتين التفاح والبرتقال ، تجرى بينهـــا جداول المـــاء النمير . وكان الوادى كأنه يشدو طربا بمـــا فيـــه من خضرة خصبة ، ولكن هـــذا الشدو انتهى بانتهـــاء الوادى .

وأخذ الطريق بعد ذلك يتلوى هابطا الى ان انداحت الأرض كلها من حوله وغدت صحراء مترامية تحف بهـا تلال جرداء منخفضة بنية اللون ، حيث لا ماء ولا زراعة . وبعد أن مروا بمعسكر صغير منعزل من معسكرات البـدو كان كأن خيامه المنخفضة مصنوعة من شعر المـاعز الأسود تحتضن الرمل ، لم تعد ثمة علامة واحدة من علامات الحياة .

وأحس انطون قرقعة فى صماخ اذنه بسبب الانحدار الشديد الذى هبطوه ، فسأل : ((**هـل وصلنـا الى مستوى سطح البحر ؟**))

فقال له أبوه : ((**لا . ان الطريق الى اريحا لم تزل طويلة يابنى**))

وشعر بطرس ايضـا بالضغط الناجم عن الهبوط ، ولكن روحه المعنوية كانت فى صعود . وانزل زجاج نافذة السيارة شوطا آخر ، لأن الحرارة كانت قد غدت الآن شديدة الوطأة . وراح يحملق من النافذة فى البرية القائظـة ذات اللون البنى المصفر ، ثم التفت الى ماريان باسما وقال لها فى سعادة :

— **لا أثر هنـا للنـاس ..**

فردت على ابتسامته بابتسامة مثلها ، ووضعت يدها برهة فوق يده المتشبثة بمقبض عصاه الفضى وقالت :

— **لقد أصبنا بالمجىء الى هنـا .**

فقال لهـا : « لن يكون الجو هنا أشد حرارة من الجو فى (اللـد) » .

فأجابته مستدركة : « كل ما هناك ان الهواء سيكون أقل ، لعدم وجود نسيم البحر » .

وعنـدئذ لاذ كلاهما بالصمت ، وشغلا بالتفكير فى الشريط الساحلى الطويل الممتد على البحر الأبيض المتوسط من عكا الى يافا ، وهو الساحل الفلسطينى الذى يبدأ منـه السهل

الكبير بكل ما فيه من بساتين البرتقال حتى التلال التى تتوج هامتها القدس .

أما الآن فلم يعد ثمة فلسطين . وهذا الساحل اضحى ساحل قطر جديد اقتطع من الوطن القديم . وهذا القطر الجديد اطلقوا عليه اسم « اسرائيل » . فلا ذهاب بعد اليوم الى الشاطىء فى حر الصيف ان كنت فلسطينيا . فليس أمام الفلسطينيين الا الملح الأجاج فى البحيرة المعروفة باسم «البحر الميت » ، وهو بركة تخلفت عن انحسار البحر عن تلك الأرض منذ زمن سحيق جدا .

وتراءى البحر الميت على البعد وقد استنزفت الحرارة الشديدة كل ما كان له من اللون، مثلما استنزفت لون السماء.. تراءى عبر مشهد من الأرض ((سيريالى)) يحفل بأشكال غريبة منحوتة فى الرمل المتماسك المتصلب .. وانه لمشهد من مشاهد الأحلام ! ها هو هذا البحر الميت جاثما هناك ، ساكنا ، كأنه البحيرة المتألقة ، بين جبال (موآب) الداكنة السمرة وبين طيات التلال من الجانب الآخر .

ورنا بطرس الى البحر الميت فى ارتياح ، لأن ظهوره دليل على انهم قد صاروا غير بعيد من أريحا . واريحا هى المكان الذى يتلهف على الوصول اليه . أما ماريان فرنت الى ذلك البحر باعزاز ، لأنه مقترن فى ذهنها بالمرحلة الرومانسية القصيرة من حياتها ، وانها لذكرى أثيرة لديها جدا . واما انطون فنظر الى ذلك البحر الميت بسرور ، وهو يفكر فى اقامة المعسكرات على شاطئه مع أمين ، ونزولهما للطفو فوق مياهه الساجية فى الليالى القمراء . ثم انحنى فوق ظهر المقعد ليخبر الغلام الأعمى أين هم الآن ، وصاح بعد ذلك فى حبور : « سنحظى بأوقات هنيئة مرحة ! فالبحر الميت على الأقل ملك لنا لا ينازعنا فيه أحد ! »

فقال له أبوه مصححا معلوماته : « بل هذا الجانب منه فقط ، والشاطىء الشرقى على امتداده ايضا » .

فزمجر والد أمين وقال : « ومن ذا الذى تهفو نفسه الى هذا البحر الراكد العفن ؟ كان خيرا لنا لوبقينا فى (رام الله) » .

فقالت له ماريان من غير أن تلتفت الى الوراء : « هذا دأبك دائما يا يوسف ، لا تكف عن الزمجرة . ما من احد أرغمك على المجىء معنا الى اريحا ! »

ولم تكن ماريان تحب ذلك الرجل اطلاقا ، وكانت تتساءل دائما لماذا يطيقه بطرس ! ؟

وبوقار شديد اجابها يوسف : « انا فى خدمة سيدى ! »

وابتسم بطرس ابتسامة واهنة ، ولكنه لزم الصمت . فهو يبيح ليوسف ان يتذمر ويشكو ، لأنه خادم كفء ، وكل منهما يفهم الآخر . وهو يعلم أن الأمر لو كان بيد ماريان لطردت يوسف منذ وقت طويل ، ولكن ماريان لا تقدر الطهو الجيد كما يقدره زوجها ، ويوسف فضلا عن مهارته فى قيادة السيارات فهو طاه بارع جدا . فلا بد أن يكون سلوك مثل ذلك الخادم الثمين منكرا للغاية كى يقدم على طرده ، ويوسف انسان لم يحدث منه اطلاقا ذنب يعاب عليه يتجاوز الزمجرة والتذمر ..

وجذبت زوجة يوسف الطرحة التى تغطى بها رأسها ولملمتها حول وجهها لتنأى بنفسها عن هذا التلاحى . وكانت هى ايضا تؤثر البقاء فى (رام الله) ، فاريحا هذه خالية من الحياة . انها ميتة مثل هذا البحر الميت . وكانت حرية أن تبقى هناك فى بيت آل داود مع والديها واطفالها الآخرين الى ان يحين اوان عودتهم جميعا الى (اللد) . ولكن مثلما يدين زوجها بالولاء للسيد ، كذلك هى تدين بالولاء لزوجها .

وكان أمين اصغر اولادها الثمانية . ولها عدة احفاد . وكان

فراقها لأحفادها هؤلاء أشد على نفسها من فراق بنيها انفسهم . وامين أحب ابنائها اليها بسبب عاهته ، ولأنه ايضا مختلف عن الآخرين على نحو غريب ، فهو احد منهم ذكاء بكثير ، ولذا اهتم به السيد اهتماما خاصا وقرر أن يتلقى تعليما وافيا فى معهد مخصص للعميان . ثم أن بينه وبين ابن السيد آصرة اخوة .

ومن امامهم بدأت كتلة التلال فى الظهور ، وقد احاطتها الحرارة بهالة على البعد ، ومن فوقها أبراج كنائس القدس وكأنها اكليل يتوج هامتها . وفى المقدمة تراءى «جبل التجربة» بقمته المسطحة وسط ارض تنمو بها اشجار السرو العالية . وفى منتصف الطريق الى قمته تراءى دير الروم الأرثوذكس .

وقالت ماريان بينها وبين نفسها : « ان الرهبان فى هذا الدير لا بد انهم يشعرون الآن بالانتعاش فى حجراتهم المنحوتة فى الصخر .. وأما الآذريون (الأقحوان الأصفر) الذى ينمو بين الأطلال فوق القمة فلا بد انه الآن ذو لون ذهبى محروق من شدة لفح الشمس » .

وكانت قد صعدت هذا الجبل ذات مرة مع بطرس . فقد عقد قرانهما فى القدس ، ثم ذهبا الى أريحا بناء على رغبتها لتمضية شهر العسل ، لأنها أرادت ان تمضى اول اسابيع حياتها الزوجية تحت سقف ذلك البيت الذى اطلق عليه اسم « دار السلام » . ففى زيارة سابقة لذلك البيت فى صحبة أبيها وقع نظر بطرس عليها لأول مرة ، فابصر فيها ما كانت عازمة باصرار على ان يتبينه لديها من انها المرأة التى تحبه وتريد ان تتزوجه . وانها الزوجة التى يستطيع ان يبنى بها بعد ان قضى سنوات من التيه العاطفى منذ هجرته «سرية» زوجته الأولى .. ثم هى فوق هذا وذاك ابنة صديقه الانجليزى الحميم « روبرت ملبى » .

ولم تكن امها سعيدة بذلك الزواج ، لا لأن بطرس منصور رجل فلسطينى ، بل لأنه أكبر من ماريان سنا بعشرين عاما ، ولأنه مطلق . ولكن ماريان كانت مستعده وهى فى سن الثلاثين أن تتزوج اباها ، ذلك انها كانت تحب بطرس منصور لما فيه من صفات تحبها فى ابيها . وكان روبرت ملبى فى ذلك الحين - قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية - ناظر مدرسة للعميان من جميع الأديان فى (يافا) . وكانت تشرف على هذه المدرسة جمعيه رعاية العميان فى فلسطين ، ومركز هذه الجمعية الرئيسى فى لندن . وكان بطرس - بوصفه من أصحاب الأملاك البارزين فى المنطقة - عضوا فى مجلس الادارة ، وكان يبدى اهتماما دائبا بادارة هذه المدرسة وتمويلها ، فنشأت بين الرجلين - بعد فترة من الميل المتبادل والاحترام - صداقة وطيدة .

وخيل لماريان أن الرجلين على الرغم من الاختلاف الكلى بين نشأتيهما يتشابهان فى أمور كثيره ، اهمها الاتزان النسبى ورقى الشخصية . وكانت ماريان تعمل فى تلك المدرسة مدة خمس سنوات قبل زواجها ، فشعرت بجاذبية نحو بطرس منصور كان مبعثها فى البداية انه صديق ابيها وشبيه به من وجوه كثيرة ، ولأنها كانت تقدر اتزانه . أما فورات غضبه فكان يغتفرها لديها ما فى طبعه من دفء وسحر ، وفطنتها الى ما يعانيه من وحشة الوحدة ، ذلك انه مسيحى من اتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، وعليه ان ينتظر سبع سنين كى يحصل على الطلاق. وكانت هذه الفترة قد انقضت وحصل على الطلاق فعلا قبل التقائهما بوقت قليل . ثم انه لم يرزق من زواجه الأول بأطفال ، فزاد ذلك من وحدته . وقد بدأت العاطفة عند ماريان نوعا من الشفقة عليه وعلى وحدته . ثم لم تلبث فيما بعد أن سرت لتلك الوحدة لأنها اخذت الطريق

امامها كى تستولى عليه بكليته !

وقد تم زواجهما فى سنة ١٩٣٤ ، وعاشا فى بداية حياتهما الزوجيه فى مزرعته بيافا بين حدائق البرتقال ، ثم بعد ذلك انتقلا الى (اللد) . وقد ولد ابنهما انطون الذى أسمياه على اسم جده لأبيه فى السنة التالية .

وكان بطرس وطنيا متحمسا ونصيرا مكافحا للقوى التى تعمل على حصول فلسطين على استقلاله . وكان صديقه روبرت ملبى يعطف على آرائه هذه أشد العطف ، الى حد ان رؤساء «ملبى» فى مقر الجمعية بلندن كانوا يعتبرونه منغمسا فى السياسة أكثر مما ينبغى .

وبعد تبادل المراسلات بين لندن ويافا قررت الجمعية استدعاء «ملبى» .وقد زاد عناده الذى لايلين من حرجهم وضيقهم به . ولم يحنق عليهم لذلك الاجراء بل عذرهم فيه ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن مستطيعا أن يصنع غير ما صنع ، وهذا هو شعوره الحقيقى نحو المسألة الفلسطينية .

وكانت ماريان تعلم أيضا على نحو ما ان اباها قد سر بمغادرة فلسطين — رغم حبه العميق لها — ذلك أن اكثر من صديق واحد من اصدقائه العرب شنقوا بسبب نشاطهم السياسى ، (وفاقا للسياسة البريطانية فى فلسطين يومئذ) ، مما جعل الموقف فى نظره لا يطاق . وكانت عودته الى انجلترا فى سنة ١٩٣٨ .

وبقيت ماريان بعد ذلك مع زوجها وطفلها فى اللد . ولم تتأثر تأثرا ماديا كبيرا بالحرب العالمية عند اندلاعها ، ولكنها كانت شديدة القلق والتوجس بسبب وجود قاعدة حربية

انجليزية غير بعيـدة من اللد فى (صرفند) . فكانت طائرات الأعداء تحلق فوقهـا ، فتنطلق صفارات الانذار بالغـارات الجوية ويهرع الناس الى المخابىء العامة . ولكن آل منصور وخدمهم كانوا يمكثون فى بيتهم معتصمين بلون من الايمـان بالقـدر .

وفى الصيف كانوا يتوجهون الى رام اللـه فيقيمون فى بيت يستأجرونه لذلك الغرض . اما فى الشـتاء فكانوا يذهبـون احيانا الى اريحا . وذهب انطون الى مدرسة فى اللد . وكان المفروض دائما انه عندما يحين الأوان سيذهب الى مدرسـة الأصدقاء الأمريكية فى رام الله ، وهى مشهورة لدى الجميع بأنها خير مدرسة فى فلسطين . ولكن عندما جاء ذلك الأوان كان العـام هو ١٩٤٨ .

وربيع سنة ١٩٤٨ هو ربيع النكبة . وتلت ذلك فى شهر مايو الحـار معركة القدس !

* * *

وكانت بلدة اريحا الصغيرة خالية من العلامات الدالة على الحرب . فالشارع الرئيسى الضيق الكثير المنحنيـات تظلله اشجار صغيرة يجلس تحتهـا الرجال على كراسى منخفضة فوق الرصيف ، امام مقاه مفتوحة الأبواب على مصاريعها ، واجهزة الراديو يلعلع صوتها من واجهات الدكاكين المفتوحة . والحمير المحملة فوق طاقتهـا تسير فى تكاسل كالمعتـاد . وعلى ابواب بعض الحوانيت يقف المسنون من الرجال وفى ايديهم مسابحهم الطويلة يحركونهـا وهم يتمتمون . والنساء يتخطرن حاملات فوق رؤوسهن جرار المـاء ، وصغار الأطفال متعلقون باذيالهن .

ومضت السيارة البويك السوداء ببطء فى الشارع الرئيسى لتشق لهـا طريقا بين الناس والحمير وعربات اليد الصغيرة وعربات الجر والكلاب الضالة ، الى أن وصلت حيث يتشعب الطريق الى حارات ضيقـة تمر بين مجموعات من اشـجار النخيل ونبات الجهنمية الذى يكسو أسوار الحدائق .

وانعطف الطريق عند احـد أركان « جبـل التجربة » ثم وقفت السيارة عند بوابة من الحـديد المنقوش ، وبرز رجل رث الثياب من جوف خص تكاد تخنقه أوراق الموز الكبيرة ، فحيى وفتح البوابة .. ومرقت السيارة فى ممر ممهد تزدحم على جانبيه أشجار النخيل والسرو والجزورينا ، صوب بيت مربع ذى نوافذ بيضاء له شرفة عريضة فى طابقه الأول من الجهة المطلة على الجبل . وكانت ثمة غوطة برتقال على أحد جانبى الممر ، اما الجانب الآخر فحافل بأشجار الورد والأزاهير .

وصعدوا سلالم قليلة الارتفاع الى شرفة ذات اعمدة ، بها باب من الزجاج يفضى الى داخل البيت . وكان رجل داكن البشرة حافى القـدمين يرتدى حلة متكسرة من التيل الأبيض ينسق منضدة على تلك الشرفة ، فلما أبصر السيارة اعتـدل فى وقفته وثبت فى مكانه كأنه جندى فى حالة انتباه . فلمـا برز سيده من السيارة رفع يده بالتحية ، فحياه بطرس وناداه باسمه ، فابتسم وأخـذ يرحب بقـدوم الأسرة وهو متهلل الأسارير .

وبعد قليل سأل سيده عن الأحوال فى البلد ــ فقد ترامت الى اسماعهم حكايات رهيبة ــ ثم أعد مقاعد مصنوعة من القش لجلوسهم .. وبعد بضع دقائق جاء بأشربة حلوة وثلج وزجاجة ويسكى فوضعها فوق المنضدة بجوارهم .

ها هم آل منصور قد باتوا أخيرا فى دارهم .

وكان الجو حارا جدا ، فاسرع يوسف فأتى بمروحة وضعها فوق منضدة اخرى بالقرب من الموضع الذى جلسوا فيه ، فهبت عليهم منها أنفاس هواء ساخن . ولكن الهواء المتحرك اسهل فى التنفس من الهواء الساكن الذى يكاد يزهق الأنفاس. ووضعوا كلهم اقدامهم المتورمة والمهرأة فوق مواطىء خشبية ، وتركوا الاسترخاء المريح يسري فى أطرافهم واوصالهم .

وكان انطون مشوقا الى اكتشاف الغابة الصغيرة المتروكة على الفطرة فى الحديقة — وهذا دأبه دائما بمجرد وصوله الى هنا — بيد ان قدميه كانتا تسببان له الما شديدا ، فاستلقى فى مقعده المصنوع من القش وهو يتساءل فى قلق متى سيكون فى مقدوره أن يذهب سائرا على قدميه الى البحر الميت .

وبعد قليل خطر له أن يستعير دراجة من دراجات الخدم . ولكن واجهته مشكلة « أمين » . ولم يكن الشوط بعيدا غاية البعد اذا ما سلك المرء طريقا مختصرا عبر الصحراء ، الا ان على المرء فى هذا الأوان من السنة أن يحذر من الثعابين والعقارب ذات اللدغات المسمومة . وكانت هذه الفكرة فى حد ذاتها كافية لاضفاء التشويق الكافى على مشروع الرحلة .

وسأل أنطون أباه وقد استولت عليه اللهفة فجأة :

— **هل نعود الى رام الله عندما يصبح ذلك مأمونا ؟**

فقال له أبوه :

— ستذهب الى المدرسة هناك فى الخريف اذا غدا كل شىء على ما يرام . اما أمك وانا فسنمكث هنا .

ولم يشأ ان يضيف الى ذلك قوله :

— الى ان تتسنى لنا العودة الى (اللد) !

ولكن .. اين جيش التحرير الكبير الذى سيرد اليهود على اعقابهم ويلقى بهم فى لجة اليم ؟ .. ان ما مر به من المحنة جعله لا يؤمن بوجوده فى الوقت الحاضر على الأقل !

وفجأة أيضا عاد انطون يسأل اباه :

— هل فى مقدورنا انا وامين ان نذهب فنقيم معسكرا عندما تتحسن حالة أقدامنا ؟

فأجاب ابوه قائلا :

— ينبغى أن ننتظر الى ان نتبين ماذا يحدث فى (لطرون) وفى القدس . فان استولى اليهود على القدس فلن يقفهم شىء عن التدفق صوب الجنوب . علينا اولا ان ننتظر ما ستتمخض عنه الأيام القلائل المقبلة .

— ٧ —

طال غياب « نصرى دجانى » — زوج نادية — الى مدى لم يكن يتوقعه أحد .. الى ان اطلق سراحه من معسكر الاعتقال مع غيره من الرجال الذين فى سن الخدمة العسكرية بمنطقة اللد والرملة فى وقت واحد تقريبا ، هو أواخر شهر اكتوبر . وفى خلال الأشهر الثلاثة التى انقضت بين الاحاطة بتلك المنطقة وبين اطلاق سراح نصرى ، حدثت أمور كثيرة جدا بعد مسيرة الخروج الكبرى من اللد :

فما ان انقضت سته ايام على سقوط اللد حتى اوقف الزحف اليهودى عبر السهل الساحلى الى (لطرون) . وقد تمكن من ايقاف هذا الزحف جنود فصيله واحده هى الفصيلة السادسه من الجيش العربى ، مستخدمين مدفعا واحدا لا غير ، ركبوه فوق سقف مبنى الشرطه .

وكان اليهود قد أعدوا العده لزحفهم ، ففضلا عن العدد الضخم الذى كتلوه من المشاة على أتم اهبة للهجوم ، كانت هناك خمس سيارات مدرعه ، ومع ذلك قضى المدفع العربى الأوحد على المدرعات الخمس ، ولم تستطع قوات المشاة أن تتقدم خطوة واحدة ..

وفى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود بدأ التطبيق الرسمى للهدنة التى قررها مجلس الأمن ، وهى تلك الهدنة التى عرفت باسم « هدنة اطلاق النار ! ! » سخرية بتلك الانفجارات التى لم تكف عن الصدور بعد اعلان الهدنة

وتطبيقها من جانب القوات الإسرائيليـة التى تستخدم المدافع الرشاشـه ، ومن جانب المتسللين الاسرائيليين — أفرادا وداوريات وقناصة يتربصون الفرص للغدر — حتى فقدت هذه الهدنة حرمتها وانقلب معناها فحق عليها أن ينقلب اسمها ايضا . وتوجـه الكونت برنادوت الى القـدس للتباحث فى الوسائل الكفيلة بتحقيق الفاعليه المطلوبة للهدنة . وفى ذلك الوقت كان الجيش المصرى يدافع عن قطاع غزة . أما الجيش العراقى فكان فى شمال الأردن .

وما أن حان شـهر اغسطس حتى كان اربعون الفـا من اللاجئين قد ضربوا خيامهم تحت أشراف شرطة شرق الأردن على جوانب التلال المحيطة بأريحا بجوار مجرى ماء .

وفى شهر سبتمبر اغتيل الكونت برنادوت فى القدس بيـد الارهابيين اليهود من عصابة (شتيرن) .

وفى أكتوبر كان الاسرائيليون قد حصلوا على اسطول جوى جديد كل الجدة هرب اليهم من تشيكوسلوفاكيا ، فاستخدموا هذه الطائرات الجـديدة القوية فى ضرب القواعد العسكرية المصرية فى منطقة غزة بالقنـابل . واخترقت قواتهم البرية الخطوط المصرية فاستولت على (حليقات) من جهة الغرب وعلى (بئر سبع) من جهة الجنوب ، وعلى (بيت حانون) الى الجنوب من حليقات . وحوصرت فى (الفالوجا) حامية مصرية يبلغ تعدادها نحو ٢٥٠٠ رجل .

وكان الذى يتولى قيادة احدى فرق المشاة فى ذلك القطاع — قطاع غزة — الذى تعرض للاشتباك مع اليهود ، ضابط مصرى شاب اسمه جمـال عبد النـاصر .

وفى ٢٢ أكتوبر ، وهو اليوم التالى لسقوط (بئر سبع) ، وقف اطلاق النار رسميا . وفى تلك الأثنـاء كانت الكتـائب الاسرائيلية تتحرك هابطة من (عرتوف) جنوبى (لطرون)

متجهة صوب (حبرون) جنوبى أريحا . وكذلك وجه الفيلق العربى بعض قواته جنوبا ، وتم انقاذ حبرون على يد الفيلق العربى الذى استطاعت داورية استطلاع مكونة من سبع سيارات مسلحة من قواته ايقاع طابور اسرائيلى مكون من ثلاثين سيارة مسلحة فى كمين نصبته له .

وعلى أثر ذلك اقام الفيلق العربى مراكز دفاعيـــة اسفل قرية (الظهيرية) جنوبى حبرون بقايـــل ، على الطريق الى بئر سبع .

وفى ٣١ اكتوبر أذاع مراقبو هيئة الأمم المتحدة ان الاسرائيليين قاموا بمذبحة قتلوا فيها ثلاثين امرأة وطفلا من العرب فى قرية غربى حبرون اسمها (الدوايمة) .

***

وكانت نادية هى التى ابلغت نصرى فى النهاية نبأ اعتداء ذلك الجنـــدى الاسرائيلى عليهـــا ، وكانت حاملا فى شهرها الثالث وصحتها معتلة جـــدا .. بل انها كانت ايضا على شفا الانهيار نتيجة للتوتر العصبى الطويل .

وقبل ذلك كان أبوها قـــد صحبها الى طبيب فحصها وقرر انها حامل ، بيـــد انه رفض ان يضع حـــدا لذلك الحمل بغير موافقة الزوج ، اذ ليس من المحقق حتما — على حد تعبيره — أن الحمل حدث لها من ذلك اليهودى . وعبثا حاولت ان تبين له استحالة أن يرغب نصرى فى استمرار ذلك الحمل الى ان تضع طفلا قد لا يكون من صلبه . فمجرد الشك هنـــا كاف للكراهة والرفض . ولكن الطبيب اصر بعناد على انه يجب ان يستوثق من الأمر ، من نصرى نفسه !

وصاحت نادية بضراوة :

— ولكن من يدرى متى سيعود ؟

وتوسل اليـــه فريد :

ـــ نحن لا نجرؤ على الانتظار الى أن يعود . لأن الأوان المناسب ربما يكون قد فات للاقدام على أى عمل عندئذ !

بيد ان الطبيب لم يتزعزع عن رأيه . وبعد مزيد من التفهيم والرجاء ، قال اخيرا :

ـــ لم يزل فى الوقت متسع . واذا لم يعـــد زوجها فى مدى شهر ، أعدكما بأن انظر فى الأمر مرة اخرى .

وبعد شهر الا قليلا ، عاد نصرى !

وكان ذلك الطبيب نفسه قد خلص الخادمة « رندا » من حملها ، كما خلص من الحمل فتاتين لاجئتين فلسطينيتين جاء بهما أبواهما . وكانت احداهما قد افتضت بكارتها واغتصبت امام عينى أبيها ! .. **ولم يكن هذا الطبيب هو الطبيب الفلسطينى الأوحد الذى تحدى القانون على هذه الصورة فى تلك الفترة ، مستريح الضمير ، ليمحو بعض آثار الفظاعات الاسرائيليـــة المقززة .**

وكانت نادية طيلة ذلك الوقت تعانى من الغثيان باستمرار ، وتتلهف على عودة زوجهـــا ، وان اشـــفقت جزعـــا من تلك العودة ! ... ثم فجأة ، وبغير انذار سابق ، عاد نصرى . عاد قذرا أشعث ، رث الثياب ، منهك القوى لأنه مشى معظم الطريق من اللـــد الى رام اللـــه . وكان شاحب اللون هزيلا بسبب ما فقده من وزنه ـــ وكان لا يقل عن عشرين رطلا ـــ وكانت أعصابه غاية فى التوتر .

ونصرى دجانى شاب كانت الحياة خفيفـــة العبء عليه جـــدا ، الى أن حدثت كارثة تقسيم وطنه . فأبوه ثرى كريم متساهل ، وله زوجة جميلة شابة وطفـــلان ، وهو متعلق بثلاثتهم تعلقا شديدا ، وعاش معهم عيشة طيبة راضية هينة فى قصر الأسرة بيافا . ولمـــا بدأ القتـــال فى تلك المنطقـــة

فى شهر مايو هرب بأسرته من يافا الى دار أصهاره آل منصور فى اللد .

وكانت هذه الهجرة نهاية شبابه اللاهى غير المكترث . ومع ذلك كان الشاب الذى اعتقله الجنود الاسرائيليون فى منتصف يوليه يتمتع بشيىء من الخفة والمرح فى سلوكه ومظهره . أما نصرى دجانى الذى دخل رام الله اشعث اغبر اعرج فى نهاية اكتوبر ، فكان يبدو أكبر سنا من حقيقته بكثير ، وحول فمه خطوط لم يكن له بها عهد من قبل .

ولكن هذا كله لا يمنع من اعتبار نصرى أحد المحظوظين من حيث انه كان يعرف أين يبحث عن أسرته بعد اجلاء اهالى غزة عنها ، اذ كان المفهوم دائما أنهم سيتوجهون الى بيت داود فى رام الله اذا اضطروا لمغادرة (اللد) .

ولم يكن يعذبه فى الحقيقة الا عدم معرفته كم منهم لم تقتله محنة الخروج من اللد الى البرية ، وما الذى حدث لزوجته وطفليه ووالديه وسائر أفراد اسرته . فظل طوال الطريق يهذى بتخيل ما قد يجده فى انتظاره من أنباء الفواجع عندما يصل الى رام الله . وكلما وقع نظره على حشود اللاجئين المعسكرين فى كل مكان شعر بالدم يغلى فى عروقه لما هم عليه من التعاسة والضياع .

أما الشارع الذى تظلله اشجار السرو ، وهو الذى كان يطلق عليه البعض أحيانا اسم شارع العشاق — لما تلقيه ظلال تلك الأشجار من الظلمة على أركانه فى المساء — فهو الآن قد صار بحق شارع اللاجئين ، وكانت موجات من التعاسة البشرية تفيض عنه فترتطم ببوابات بيت داود ، بل وتتسرب الى حديقته ذاتها .

وعندما انعطف نصرى الى الشارع ، تحت رعاية الخادمة رندا ، استطاع أن يبصر طفليه يلعبان قرب البيت ، فأطلق

صيحة ، واقبل الطفلان يجريان ويطلقان صيحات الدهشة والسرور . أما الفتاة الخادمة فأجفلت وولت الأدبار صاعدة السلم ، واجتازت البهو مارقة كالسهم الى داخل الدار .

وبعد لحظة عادت مع نادية ، يتبعهما والدا نادية . وفطن نصرى الى وجود ماجده وفريد ، ولكن عينه لم تبصر حقا سوى زوجته وقد ارتدت ثوبا أبيض له حزام احمر ، وهى تجرى هابطة السلالم صوبه .

* * *

وبعد موجة المعانقة والترحيب والاستفسارات والاطمئنان على أبويه اللذين عرف الآن انهما يقيمان فى دارهما بالقدس ، توجه نصرى اولا الى الحمام حيث اغتسل وبدل ثيابه . وكان الحمام قد أعد له على عجل ، وامده خليل بالثياب ، بينما انتحت حماته ماجدة جانبا بابنتها نادية ، فى اضطراب شديد – أثناء وجوده داخل الحمام – وقالت لها :

– عندما يخرج من الحمام سيكون عليك أن تذهبى اليه فى حجرة النوم . فماذا أنت مزمعة ان تفعلى ؟ ماذا ستقولين له ؟

فأجابتها نادية :

– الحقيقة طبعا . فأنا لا أشعر الآن ، وقد عاد ، بأدنى خوف ، لأنه عانى بنفسه تجربة قاسية على يد اليهود ، ولذا سيفهم الموقف . وأنا واثقة انه سيذهب معى الى الطبيب .

فقالت لها أمها فى قلق :

– وكيف يمكنه ان يقطع برأى ؟ قد يداخله عندئذ الخوف من ان يكون ذلك الجنين من صلبه ! ؟

فردت عليها نادية بثقة :

ـ انه لن يترك شيئا للمصادفة . لن يجرؤ على ذلك .
فهزت امها رأسها بارتياب وقالت :
ـ ليس فى وسعك أن تجزمى بذلك . فللرجال طبائع غريبة . وقد يثيره النبأ فينقلب عليك . ماذا ستفعلين اذن ؟
فقالت نادية بمرارة :
ـ سأنتظر ! أليس هذا ما فرض علينا نحن الفلسطينيين ان نجيده ؟
وتنهدت ماجدة ، ثم نهضت قائلة لها :

ـ كان الله معك . سأصلى من أجلك .

وكان هذا الحديث قد دار خارج البيت فى الشرفة . ونهضت نادية بدورها وتبعت والدتها الى داخل البيت ، فتوجهت ماجدة صوب المطبخ ، بينما صعدت نادية الى الطابق الأول .
ولم يلبث أن خرج نصرى من الحمام مرتديا عباءة حريرية من عباءات خليل ، فبدا فى عينى زوجته ـ بعد أن حلق لحيته ـ اقل شحوبا وهزالا . ومرة اخرى أحست بمبلغ وسامته ، فازداد خفقان قلبها وتوجسها .
وقال لها نصرى يطمئنها باسما :

ـ ها قد أصبحت انسانا جديدا .
ودلفا الى حجرة النوم معا ، وأدار نصرى المفتاح فى الباب ، ثم اخذها بين ذراعيه وقال لها ببساطة :
ـ ما أطول واشد ما اشتقت اليك ! لن تصدقى مهما قلت لك ! وعندما ابصرتك تهبطين السلم وتجرين على ارض ممر الحديقة المفروشة بالحصباء الملونة لتستقبلينى ، شعرت انك أحلى واشهى من اى وقت مضى !
وتبادلا قبلات عميقة ، وسمعت قلبه يدق دقا عنيفا . ولما بلغت القبلة الحارة ختامها المحرق تمرع بجذبها برفق صوب

الفراش ، ولكنها ابتعدت وقد اكفهر لونها اكفهرارا شديدا ، وقالت له بصوت اجش :

— نصرى ! عندى ما أقوله لك . وانه لرهيب !

وفى هذه المرة كان الخفقان العنيف صادرا عن قلبها هى .. وحملق فيها منتظرا . ولما لم تتكلم ، سألها وقد اعتراه الخوف فجأة :

— ما الخبر ؟

فقالت فى الم شديد :

— عندما اعتقل جميع الرجال فى ذلك اليوم المشئوم ، جاء جنديان يهوديان الى البيت وطلبا ماء ليشربا . وقالا انهما من (الهاجاناه) . ونزلت اليهما « رندا » بالماء ، فجرها أحدهما قسرا ..

وتوقفت عن الكلام . وراح ذهنها ينقب عن الألفاظ المناسبة للتعبير عن بقية المأساة . ووقفا برهة ينظر كل منهما الى الآخر بعمق وفزع ، ثم أشاحت نادية بنظرها عنه كى تجد فى نفسها القدرة على مواصله الكلام :

— جرها قسرا الى داخل حجره . وسمعناها تصرخ ، فأسرعت أنا وماريان نهبط السلالم لنجدتها . وعندئذ .. عندئذ قبض الجندى الآخر على عنوة !

ونظرت اليه مرة أخرى ، فى يأس .. وبعد قليل قالت بصوت مرتجف حاد :

— لقد قاومت وناضلت ، ولكنه كان شابا وكان قوى البنية جدا ..!

وفجأة استطردت من غير مناسبة او اتصال بما قالت آنفا :

— انه لبنانى أمريكى .

واستمر يحملق فيها من غير أن يتكلم . وفجأة انفجرت براكينها ، وصرخت فيه قائلة :

ــ لا تنظر الى هكذا ! لم يكن الذنب ذنبى ! الا تصدقنى ؟ انا الآن حامل فى الشهر الثالث ، ويكاد الجنون يطبق على من فرط القلق والانزعاج ! يجب علينا أن نفعل شيئا لمواجهة هذه النكبة . وثمة طبيب مستعد اذا وافقت انت .. اذا ذهبت معى اليه أن ...

وترنحت ثم هوت على الفراش وهى تبكى بكاء هستيريا .

وظل نصرى واقفا يحدق فيها . وفجأة شعر ببرودة شديدة تسرى فى أوصاله ــ مع ان اليوم كان حارا ــ فارتجف وجمع عباءة خايل حول جسمه فحرره ذلك التصرف من سباته ، واتجه نحو السرير وجلس عليه بجوارها ، ولكنه لم يلمسها .

وبعد برهة صمت قال لها :

ــ لقد كان من رأيى دائما انه ما من امرأة يمكن ان يغتصبها رجل بغير ارادتها . فكيف يمكن لرجل أن ينال وطره من امرأة ان هى ثابرت على الرفس والمقاومة ؟ أنا شخصيا لم أفلح فى ذلك ، فلماذا يستطيعه هذا اليهودى ؟

فرفعت رأسها عن الفراش وحملقت فيه مشدوهة وقالت له :

ــ الا تصدقنى ؟ اخطر ببالك اننى من الممكن ان اسلم نفسى لجندى يهودى على هذا النحو بمحض ارادتى ؟ لقد كانت ((رندة)) فى تلك الحجرة ذاتها فى ذلك الوقت . وفى وسعك ان تسألها . رن الجرس ! أرسل فى طلبها !

ولما وجدته لا يحرك ساكنا حاولت ان تتحامل على نفسها وتغادر الفراش كى تصل الى زر الجرس بجوار الباب . ولكنه أمسك بمعصمها وقال لها :

ــ لا ! أنا اصدقك .. طبعا انا مصدق ما قلت ! ولكنه شىء رهيب جدا ! زوجتى انا يعتدى على عرضها رجل .. ورجل من حثالة اليهود ! ؟ يا الهى !

ودفن وجهه فى راحتيه ، ثم نظر اليها فى اشفاق وقال :

— فى تلك الليلة الأخيرة قبل أن يأخذونى .. كان ما تعلمين بيننا . فمن الجائز أن يكون هذا الحمل منى .

فهتفت فى حنق :

— ولكننا لا نستطيع أن نعلم . ولا يمكننا ان نقطع برأى على وجـه اليقين . يجب أن نذهب الى الطبيب يارجـل ! وبسرعة ! أنا الآن فى الشهر الثالث !

ومدت يدها فلمست وجهه الشاحب وقالت :

— نصرى ! شـد ما اشتقت اليك ! شـد ما اشتقت الى اجتماع شملنا من جديد ..

فتناول يدها تلك وضغطها على صفحة خده وقال :

— أنا ايضا كنت شديد الشوق اليك . ولعل شوقى اليك كان اشد من شوقك أنت الى .

وقبل باطن يدها ، ثم فجأة نهض وقد ثارت مراجله :

— الم يكف اليهود ما صنعوه بنا ، وقد اغتصبوا وطننـا وديارنا واراضينا ؟ هل كان لا بـد لهم ان يغتصبوا نساءنا أيضـا ؟ !

واتجه عبر الحجرة الى مائدة الزينة ففتح صندوق سجائر استخرج منه سيجارة فأشعلها . ثم قال بعد أن جذب نفسا منهـا :

— وهو كذلك . سنذهب الى الطبيب وسيجهضك . وبعد أن اطمئن على سلامتك سأتوجه الى عمان وانخرط فى سلك الفيلق العربى . فهم بحاجة هناك الى الرجال . **واذا واتانى الحظ سأقتل بضعة من اليهود قبل أن ينتهى القتال !**

وبعد لحظة سألهـا :

— وماذا حدث لرنـدا ؟

فأجابتـه نادية :



ـ لا تنظر الى هكذا ! لم يكن الذنب ذنبى ! ألا تصدقنى ! ؟

— أجهضها الطبيب . ولكن الشاب الذى كان على وشك الزواج منها يقول الآن انه لا سبيل الى ذلك الزواج بعد ان فقدت بكارتها . فأسرته من الفلاحين المتزمتين ، ومن تقاليدهم ان يرقصوا ليلة الزفاف بالمنديل المخضب بدم بكارة العروس على دقات الموسيقى . وحيث انه لا دم هناك لتخضيب المنديل فلا عرس ولا زواج !

فزوى نصرى ما بين حاجبيه وقال :

— ان التدليس فى هذه الأمور مستطاع وميسور . فهناك اكثر من وسيلة لتلطيخ منديل العرس بالدم !

فأجابته نادية :

— أعتقد انه زاهد فى الزواج منها الآن . لأنه سيتذكر كلما اجتمع بها ذلك اليهودى الذى سبقه اليها فكان اول من عرفها !

وازداد تقطيب نصرى ولم يتكلم . وعاوده الشعور بالبرد وارتجف ، فقال لها :

— الأفضل ان البس الآن ثيابى . فانى اشعر بالبرد بعد الحمام الساخن . ساعدينى على اللبس .

فنهضت نادية عن الفراش وتوجهت الى مائدة الزينة حيث مررت المشط فى شعرها ، ثم قالت بتبلد :

— ينبغى الا تصاب ببرد . ها هى الثياب المعدة لك . وسأمضى انا الى المطبخ لأرى ماذا يعدون للغداء ..

* * *

وبمجرد ان استطاعت ماجدة الظفر بابنتها فى خلوة ، بعيدا عن المطبخ المزدحم ، سألت نادية بقلق :

— هل كل شىء على ما يرام ؟

فقالت لها نادية بشرود :

— نعم . وسنذهب معا الى الطبيب .

فسكتت امها برهة ثم سألتها :

— ولكن من جهة اخرى ، الم يحنقه ذلك عليك ؟ الم يحملك وزر ما حدث ؟

فبادرت نادية تقول لها :

— لا . مطلقا !

بل واستطاعت نادية ، زيادة فى طمأنينة امها ، ان تحمل شفتيها على الافترار عن ابتسامة صغيرة . وعندئذ تمتمت ماجدة :

— اشكرك اللهم ! ما اكرمك يارب !

ثم التفتت الى ابنتها وقالت لها :

— هكذا اقول دائما لأبيك . ولكن اباك يأبى دائما ان يصدقنى وان يؤمن برحمة الله !

— ٨ —

اعتنت مأدبة خاصـــة فى ذلك المساء احتفالا بعودة نصرى من المعتقل اليهودى . ولم تكن مأدبة فاخـــرة كمآدب الأيام الخوالى ، لأن النقص فى الأقوات بمدينة رام الله كان شديدا جدا بسبب ضـغط اللاجئين وحالة الحرب — برغم توقف العمليات العسكرية — ولكن الحمل المشوى التقليـدى قدم صحيحا على المائدة بأكمله ، بما فى ذلك الرأس ، فوق وسادة ضخمة من الأرز المحمر بالمكسرات ..

واتصلت «منى» تليفونيا بدار السلام — فى مدينة اريحا — كى تدعو بطرس وماريان لحضور ذلك الحفل ، ولكن بطرس لم تكن صحته على ما يرام ، فقد عاودته علة قلبه القديمـة كما قال لأخته . وركب خليل سيارته الى القدس ليأتى بوالدى نصرى وبقيـة الأقارب الذين يعيشون فى القدس والأماكن المحيطة بها ، ولم يكن يشارك اصهاره فى تخوفهم من دخول المدينـة المقدسة .

وكان رجال الفيلق العربى بعقالهم الأبيض والأحمر يقفون امام تحصينات اسوار المدينة القديمة التى ترجع الى القرن السادس عشر . وكان من الضرورى ان يتجنب خليل الدخول من بوابة دمشق ، لأن كنيسة النوتردام التى تقع تجاههـا — والتى دمرتها المعارك — لم تزل فى ايدى القوات الاسرائيلية التى تسلط المدافع الرشاشة على تلك البوابة من نوافذ الكنيسة . وهى منطقة مشهورة ايضا بكمون القناصة فيهـا . واولئك القناصة يشكون السأم ، ولذا يسلون انفسهم بتذكير المدنيين

العرب بأنهم ما زالوا هناك ، بتوجيه القذائف اليهم عندما يمرون فى الرحبة التى امام البوابة ، ضاربين بالهدنة عرض الحائط !

وسلك خليل الطريق المار أمام المتحف الى حى الشيخ جراح شمالا ، ثم أدار راديو السيارة على محطة اسرائيل التى كان يصغى لاذاعتها — فى اهتمام ممزوج بالألم — بضع مرات فى كل يوم .. واذا صوت رجل ، وان كان صوتا ناعما ، يتكلم العربية الفصحى معلنا ضرورة الاستيلاء على (العقبة) ، الميناء الواقع على الخليج المعروف باسمها عند رأس البحر الأحمر ، وفى الجنوب الاقصى من (النقب) ، وهى المنطقة التى منحها لليهود مشروع التقسيم الذى اقرته هيئة الأمم المتحدة .

وما أن سمع خليل ذلك حتى اغلق الراديو حانقا . فالعقبة آخر منفذ لشرق الأردن على البحر الأحمر بعد أن اغلقت فى وجهها موانىء فلسطين المسلوبة على البحر الأبيض .
واستمر خليل فى طريقه بسيارته الى أن وقف على طريق رام الله عند فيلا حديثة مزخرفة يقيم بها والدا نصرى مع نفر من ذوى قرابتهم الأدنين . وكانت الشمس قد جنحت للغروب فى بهاء أخاذ القى اشعته القرمزية المذهبة على القباب والمآذن وابراج الكنائس الضاربة فى سماء القدس ..

* * *

ساء منى من أخيها الأكبر بطرس ان يعتذر من عدم القدوم الى رام الله تلبية لدعوتها ، كما ساءها منه قبل شهور أن يرحل الى أريحا غداة وصوله من اللد . وكانت واثقة انه رفض الحضور لأنه لا يريد ذلك ، لا بسبب توعك صحته

كما قال . والحق انه لم يحبب « خليل » فى أى يوم من الأيام. وهو الآن حانق عليه لانه لم يمسسه أذى او خسارة من تلك المأساة الوطنية الفلسطينية .

ولم يخفف من حدة غضبها ما اكده لها اخوها فريد أشد التأكيد من ان بطرس تأذت صحته كثيرا جدا منذ تلك المسيرة الوحشية من اللد عبر البرية . وقالت له ردا على ذلك :

— من عادة بطرس أن يدعى المرض او التوعك كلما وجد فى ذلك ما يوافق هواه . أن حالة قلبه ليست من السوء كما يدعى ، فقد مكنته من تحمل تلك المسيرة بكل مشاقها ، حيث هلك فيها كثيرون لا يدعون مثل علته . انه يريد دائما ان يفعل ما يحلو له ، ويأبى ان يفعل ما لا رغبة له فيه !

والواقع انها كانت شديدة الغضب عليه لأنها تحبه أشد الحب ، ولأنه آذى شعورها .. ولكن « فريد » كان على عكسها شديد القلق على صحة اخيه بطرس ، وقرر ان يذهب لزيارته والاطمئنان عليه بمجرد الفراغ من مشكلة نادية والاطمئنان على صحتها ومصيرها . ولعله يتمكن من الذهاب الى هناك فى عطلة آخر الأسبوع مع انطون الذى دخل مدرسة الأصدقاء الأمريكية منذ سبتمبر ، ولذا فهو يعيش معهم فى رام الله .

أما نصرى فقد اسعده كثيرا ان يرى ابويه . ولكن فيما عدا ذلك لم يأبه كثيرا سواء حضر بطرس منصور او غير بطرس منصور أم لم يحضروا . بل انه فى الظروف الدقيقة التى يجتازها كان يفضل ألا تقام حفلة على الاطلاق بمناسبة قدومه .

اجل انه عاد الى اهله بعد غيبة طال امدها وساوره وساورهم فيها القلق ، ولكن رجوعه الى زوجته وطفليه لم يتمخض عن تحقيق حلمه الذى عاش فيه تلك الشهور الثلاثة ، بل الذى

نفسه يعيش فى دوامة كابوس مروع صار يتمنى الخلاص من عذابه لينطلق بعيدا مرة أخرى .. بعيدا الى عمـان ، حيث يتـدرب فى صفوف الفيلق العربى ، ثم ينطلق الى أى مكان يوجهونه اليه ، بشرط ان يتمكن من مقاتلة العدو .. فيقتـل ويقتل !

وكانت نادية فاتنة جدا بشعرها الفاحم الغزير ووجههـا الشاحب البيضاوى وعينيهـا الواسعتين . كانت جميلة فى عذوبة . ومع ذلك فانه كلما نظر اليها الآن تذكر على الفور ذلك الجندى اليهودى الشاب وهو يتحسس بدنها البض ، ويلقى بجسده فوق جسدها ، وينالها ، ويقضى لبانته القذرة منهـا . يتذكر هـذا فتغلى دماؤه ولا يفكر فى شىء سوى الانطلاق . الانطلاق ليقتل ويشفى غليله بسفك دماء السفاحين !

ولكم قال لنفسه انها تعذبت اكثر مما تعذب بتلك التجربة الرهيبة ، وان من واجبه أن يرحمها ويرثى لها ، وان يمتلىء قلبه ويفيض حبا لها وحنوا عليها . ولكن سائر هذه المشاعر كانت قد ماتت لديه ، ولم يعد فى مقدوره أن يشعر بشىء اللهم الا هـذه الغيرة الوحشية ، والا الجمود الفظيع فى جوانحه وعواطفه الرقيقـة .

انه يتمنى الآن ان تنتهى هذه المأدبة ، لأن قلبه عاجز عن المشاركة فيها . ومع هـذا فهو مشفق من الليل ، ومن رقاده هامد الجسد عاجزا عن التجاوب مع زوجته والاقتراب منها .. وهى الحلوة الجميلة الرقيقة المحبة . انها زوجته وحبيبتـه وأم اولاده . انها تحبه ويحبها ، ولا ذنب لها بل هى مجنى عليها . ولكنه لا يستطيع ان ينسى انها عرفت رجلا آخر ، وان هذا الرجل ينتمى الى العدو !

اما انطون فكان مستشار النفس لمرأى نصرى مرة اخرى . فزوج نادية ابنة عمه شخصية رومانسية بطولية فى نظره .

اليس قد اخذه اليهود الى معسكر للاعتقال وثبت للمحنة وخرج حيا منها وعاد اليهم ليقص عليهم قصته ؟ ! .. ثم انه يعتزم الرحيل لينضم الى الفيلق العربى ويعاون فى القاء اليهود الى البحر ! .. ان انطون لم يزل مؤمنا — شأنه فى ذلك شأن معظم الفلسطينيين — ان القاء اليهود الى البحر أمر محتوم الوقوع . لقد كان طول حياته يحب نصرى ، ونصرى يحبه ايضا . بيد ان نصرى الذى عاد اليوم الى رام الله يختلف كثيرا عن نصرى الذى يعرفه . انه لم يعد يرسل ضحكاته المرحة أو نكاته ومزاحه وتهريجه . بل انه لم يعد يبتسم ولا يتكلم الا اذا وجه اليه الكلام أحد .. وعندئذ يغمغم ببضع كلمات ثم يسكت . لقد أصبح يبدو اكبر سنا من حقيقته بكثير جدا .

واستقر رأى انطون على ان السبب فى ذلك ماعاناه نصرى على يد الاسرائيليين . ولعلهم عذبوه . وسيكون على ما يرام عندما يقضى فى البيت فترة من الوقت مع نادية والطفلين .

وبنت عمه نادية ايضا لاحظ عليها اختلافا شديدا منذ جاءوا الى رام الله . فهى كذلك لا تضحك ولا تمزح ، بل ولا تلاعب الطفلين . انها على قول زوجة عمه ماجدة ليست على ما يرام صحيا . وقد تجرى لها جراحة ، وهم ينتظرون عودة نصرى كى يذهبوا بها الى الجراح ليشفيها مما بها .

وفجأة عاد نصرى ، وشرعت عمته وزوجة عمه فى العمل بنشاط ، توجهان الخادمات والخدم وتصدران اليهم الأوامر ، بل انهما اشتركتا شخصيا فى أعمال المطبخ انجازا للوليمة الكبرى . وطير النبأ السار الى جميع الأقارب والأصدقاء ، ودعوا للحفلة . الا ما اشبه ذلك بجو الاحتفال بعيد الميلاد .

لقد خيب آمال انطون كثيرا أن والديه لم يتمكنا من الحضور ، وانتابه القلق على أبيه الذى لم تكن صحته على ما يرام منذ

غادروا البلد . ولكنه عندما قال ذلك لعمته « منى » أجابته متسائلة فيما يشبه الغضب :

— وماذا تتوقع ان يكون حاله وقد اصر على البقاء هناك فى (اريحا) طول الصيف .. ؟

ثم لم تلبث أن اردفت :

— لا بد انهما مجنونان .. كلاهما !

ولكنهما لم يكونا مجنونين — فى نظر الصبى المحزون — بل هما شقيان فقط ، محطما الفؤاد . وعندما يكون هذا حالك فانك تحب أن تعتكف في دارك . ودار السلام هى دارهما الحقيقية . فمهما ألح زوج عمته خليل على ابيه قائلا : « ان دارى هى دارك ! » ، فى كرم عربى اصيل صادق ، فالحقيقة الواقعة ان هذه الدار هى دار آل داود وليست دار آل منصور . وبطرس منصور — كما يعلم ابنه تمام العلم — رجل متعود على الأمر والنهى فى داره ، وعلى توجيه خدمه وتصريف شئون بيته على طريقته الخاصة . ولا سبيل الى ان يشعر الا بأنه « ضيف » فحسب فى أى دار غير داره ، ولو كانت هذه الدار دار زوج شقيقته !

لهذا كله كان انطون يدرك انه من الأيسر والأجدى على والديه أن يظلا فى اريحا رغم انخفاضها الشديد ورغم حرارتها الرهيبة فى فصل الصيف .

أما هو شخصيا فيفضل الاقامة فى رام الله فى الوقت الحاضر ، بعد أن تغلب على شعوره بالخوف من هجوم اليهود عليها ، فهو يحب مدرسة الأصدقاء الأمريكية ويزهيه ما يقال عنها من انها خير مدرسة فى فلسطين بأسرها .

والحق انه سرعان ما اخلد الى الاستقرار فى رام الله ، بيد انه شعر بالوحدة والافتقار الى الأصدقاء منذ رحل امين ليدخل مدرسة العميان فى بيت لحم . وكان بطرس قد رتب له

هذا المسير . وبعد ذلك صفت علاقته ببنات عمته بمجرد زوال غشاوة الحياء الاولى لدى الطرفين . ولكنه لم يستطع ان يشعر بحرارة الصداقة حتى بالنسبة لمن كانت منهن فى مثل سنه . اذ لا يسعه ان يذهب مع فتاة لاقامة معسكر فى الخلاء او للسباحة ، ولا ان تشاركه فى الاهتمام بلعبة كرة القدم . فصارت الامر بينه وبين بنات خليل داود علاقة تقوم على التسامح المتبادل ، فهن لا يبالينه وهو لا يباليهن . اما موضوع الصداقة فلا محل له فيما بينهم ، فلهن دنيا البنات الخاصة بهن ، وما أبعد هذه الدنيا عنه وعن تقديره . وفيما يختص بسائر الأمور العملية كان التباعد بينهم تاما على نحو ما يجرى به العرف من التفريق بين الجنسين فى كنائس فلسطين فى أيام الأحد تماما ..

وفى وليمة العشاء جلست الفتيات مع زوجة عمه ماجدة ونفر آخر من الفتيات والنساء الى مائدة صغيرة فى حجرة ملحقة بحجرة الطعام ، لأنه لم يكن هناك متسع للجميع على المائدة الكبيرة ، وهكذا بدت الوليمة وكأنها قد قسمت قسمة طبيعية الى فريقى الرجال والنساء . وان كان رأى خليل — فيما بينه وبين نفسه — ان هذا من تأثير العرف الشرقى العتيق الذى يأبى الا أن يثبت وجوده ..

وجلست نادية بجوار نصرى على المائدة الكبيرة ، وجلست منى وخليل معا فى الوسط . وكان انطون سعيدا بجلوسه الى جوار نصرى من أحد جانبيه ، والى جوار عمه فريد من الجانب الآخر ، وعمه هو اقرب الناس واحبهم اليه بعد ابيه . وقال الجميع انها لخسارة أن لم يتمكن بطرس وماريان من الحضور .

وقبل أن يدعى الجميع للجلوس الى المائدتين اقبلت على انطون بنت عمته الكبرى ومعها فتاة تمسك بها من يدها ،

وقالت له :

ــ هذه هى صديقتى « ثريا » . وهى زميلتى فى المدرسة . ووالدها هو الدكتور سابا الذى يعرف والدك معرفة وثيقة .

وكان انطون يعتبر تقديمه الى اى انسان ، ولا سيما من الجنس الآخر ، بمثابة محنة له ، بيد انه ارغم نفسه على النظر الى الفتاة وغمغم بعبارة من العبارات المهذبة المتعارف عليها. وبدت له الفتاة من النوع العادى جدا ، ولا تثير اهتماما خاصا، فيما عدا أن اباها يعرف اباه . وسألها انطون على سبيل التأدب :

ــ هل أنت من (اللد) ؟

فأجابته ثريا قائلة :

ــ لقد ولدت هناك . ولكن اسرتى انتقلت الى هنا بعد ذلك بقليل . وقد حضر والدى ليرى بطرس بك بمجرد أن سمعنا بوجودكم هنا ، ولكنكم كنتم قد رحلتم الى اريحا .

فسألها انطون :

ــ وهل والدك موجود هنا الليلة ؟

فقالث ثريا :

ــ لا . فهو الآن موجود فى امريكا لحضور مؤتمر طبى .

وعندئذ قالت له بنت عمته فى افتخار :

ــ ثريا سوف تدرس الطب .

وضحكت الفتاة فى خجل فبدت اسنانها الكبيرة غير المتناسقة . واحس انطون على الفور انها اقرب الى القبح . وسمعها تقول :

ــ أتمنى ذلك ، ولكنى لا ادرى هل افلح ام لا ..

فقالت صديقتها فى ولاء وحماسة :

ــ طبعا ستفلحين ! يجب أن تؤمنى بقدرتك وتثقى بنفسك .. قل لها هذا يا انطون !

فقال لهما انطون بارتباك :

— نعم . هذا صحيح .

وعندئذ أحس ارتياحا كبيرا اذ اعلن ان العشاء قد اعد ، وان على الجميع أن يجلسوا الى المائدة . واثناء تناول الطعام نظرت الفتاة صوب انطون عدة مرات ، ولكنها لم تفلح فى التقاء عينيها بعينيه !

وقدم خليل لضيوفه شراب العرق ، وشيئا فشيئا حلت عقدة لسان الرجال وانطلقوا فى الأحاديث ، ما عدا نصرى الذى لم يشرب من العرق الا مقدارا قليلا جدا وظل صامتا ، وهو الذى كان مجرد وقوع نظره على كأس من العرق كافيا لان تتألق عيناه ويبدو عليه أن مجرد مداعبة رائحة ذلك الشراب لأنفه تبهج قلبه وتثمله !

وشرب الرجال نخبه ، متمنين له استعادة العافية والانشراح ، مرحبين بعودته ، راجين له التوفيق فى القتال مع الفيلق العربى ، وان يعود سريعا الى بيته فى يافا . وكان فى كل مرة يقول لهم : « شكرا » ، ثم ينحنى لهم انحناءة يسيرة ، وهو مجفل بعض الشىء ، كمن كان فى سبات ثم لكزه احد فأيقظه فجأة !

واخيرا بلغت الوليمة ختامها . وكانت الوان الطعام الكثيرة موضوعة كلها على المائدة فى وقت واحد . وانتقل الجميع على الأثر الى حجرة فسيحة صفت فيها المقاعد والأرائك حول الجدران ، فجلسوا من تلقاء انفسهم فى فريقين ، كل جنس فى ناحية ، وقدمت القهوة التركية الفواحة بما خالطها من بذور « الحبهان » فى فناجين صغيرة ، ووضعت النرجيلات الى جوار من يدخنها من الرجال ، فجعل ماؤها يرسل فقاقيعه فى قرقرة لطيفة ، ودارت الأحاديث هينة لينة تتخللها عواصف من القهقهة كلما القى احدهم طرفة او نكتة مستملحة .

ولكن بعد فترة وجيزة كثرت فترات الصمت فى تلك الجلسة الساهرة ، لأن وجوم الشاب الذى اجتمعوا لتكريمه والاحتفال بسلامة عودته ، وانصرافه عن سمرهم ومزحهم ، جعلاهم يشعرون بعدم الارتياح !

وكان هؤلاء الرجال لا هم لهم الا التباحث فى موضوع واحد يعنيهم جميعا فى الوقت الحاضر ، الا وهو الموقف الحربى ، واحتمالات تخليص القوة المصرية المحصورة فى الفالوجا منذ اقتحم الاسرائيليون تلك المنطقة ، وما حدث للجيش السورى، وما كان ينبغى عمله فيما مضى ، وما ينبغى عمله الآن ، وعلى من يقع اللوم ، وما المنتظر حدوثه بعد ذلك ..

— ٩ —

كان الحديث فى جملتــه هو الحديث المـألوف كلما اجتمع فلسطينيان أو ثلاثة معا .. وكانت المناقشات تدور من غير ان يصل المتناقشون الى نتائج ، لسبب بسيط جـدا وهو أن لا احـد منهم يدرى شيئا على وجه التحقيق عن تلك الأمور جميعا . وانما المسألة كلهـا لون من الوان التنفيس يحدث راحة فى النفس المكروبة بما يلقى من ظلال اللوم على هـذا الفريق أو ذلك . **فمن قائل لو فعـل العراقيون كذا ، وقائل لو فعل الفيلق العربى كذا ، وقائل لو فعـل فاروق كذا .. وعلى هـذا النحو مضى مؤتمر هؤلاء الجالسين فى المقـاعد الوثيرة يدخنون النرجيلة يضع الخطط العسكرية التى لا تعرف الفشل !**

وكانـوا بين الحين والحين ينظرون الى نصرى — وهو أحدثهم سنا ، فيما عدا انطون — وقـد جرب بطريق مباشر الاحتكاك بالعـدو ، ثم هو على وشك المضى للاشتراك فى مقاتلتهم — (اذا احتاج الأمر مستقبلا لقتال ، أو سمحت بذلك ظروف السياسة الدولية) — ويتوقعون منه أن يدلى برأيه ويشترك فى المناقشة . ولكنه كان لا يدلى بشىء لأنه لا يجد لديه ما يقوله ، فيثقل عليهم صمته .. واذا ما نظروا اليـه ينتظرون الالهام والحماسة ، ألفوه صورة مجسمة للتخاذل وضعف الهمة !

وجاءتهم « رندا » بصينية مثقلة بأكواب صغيرة بها شاى

يلا لبن ، وانتهز نصرى فرصــة انشغال الحاضرين بهــذا الشراب وتوزيعــه عليهم ففــر من الحجرة . وحكت نادية للضيوف الذين حضروا لمعزيته الجماعه — من كانوا عن كثب منــه — ان حالته العصبيه سيئة للغايه بسبب ما عاناه فى المعتقــل . وابدى كل واحد منهم عطفه عليــه ومشاركته الوجدانيــه له ، ثم استــأنف الجميع ما كانوا بصــدده من المناقشات . بدأت النساء الكلام ، ثم تبعهن الرجال ، وكأنما أوحى اليهم الرثاء لحال نصرى ان يتباحثوا فى موضوع تلك الهدنه التى يعبث الاسرائيليون بها غايه العبث ، وتطرقوا بعد ذلك الى الحديث عن الموقف بصفة عامة .

أما بالنسبة لنادية فان قلقها على حالة زوجها ، فضلا عما تفيض به جوانحها من التوتر الذى اوجده لديهــا مسلكه — بالاضافة الى حالتها الأصليه — كل ذلك جعل المساء يبــدو لهــا وكأنه لا يؤذن بانتهــاء .

وانتهزت حماتها الفرصة فتشبثت بها وراحت تصب عليها الحاحها أن تثنى نصرى عمــا اعتزمه من الانخراط فى سلك الفيلق العربى ، فهو بحــاجة ماسة الى الراحة واسترداد عافيتــه المنهكة .

وردت عليها نادية بأن نصرى سيصنع ما يريد ، وانه كان دائمــا مطلق التصرف فى أمور نفســه ، لا يصغى لتوجيهات احد . ثم استأذنت فى القيام لتطمئن على الطفلين زاعمة انهما يستيقظان عادة فى نحو هذا الوقت من الليل .

وذهبت بالفعل الى حجرة الطفلين والقت عليهمــا نظرة سريعة فوجدتهما يغطان فى نومهما كما توقعت ، ثم ذهبت الى حجرة نومها وقلبهــا يدق دقا متلاحقا خوفا من أن لا تجد نصرى هنــاك ، وهى فى الوقت نفســه تخشى أن تجده هنــاك ! .. وفتحت البــاب فى خوف ، وفى ضوء المصباح

الخافت المظلل بغلالة حمراء بجوار الفراش ، استطاعت أن تتبين هيئة نصرى مستلقيا بكامل ملابسه على السرير ، وقد عقد يديه تحت رأسه ، وفى الحجرة رائحة سجائر نفاذة .. فقالت له بعصبية :

ــ لقد تساءلت أين انت ، وحسبتك اويت الى فراشك .

فقال لهـا :

ــ كان لا بد لى أن انفرد بنفسى . لقد عجزت عن تحمل البقـاء بينهم اكثر من هـذا ..

ــ ولكنهم جاءوا جميعـا ليروك ، وفيهم والداك وسائر الأقـارب ! ؟

فأجابهـا وهو راقـد :

ــ اعلم هذا . ولكنى لست مستعدا لمقابلة الناس الآن ، وذهنى مثقل بالأفكار كمـا تعلمين .

فوقفت تنظر اليه مترددة ، وبعد برهة قالت :

ــ لقـد اتفقت على موعد نذهب فيـه غدا فى الساعة العاشرة معا الى الطبيب . انه صديقك القديم «هريد» (١) ، وقد سره أن يعلم نبأ عودتك الينـا ، وهو يبعث اليك بأطيب تمنيـاته .

ولم يعلق نصرى على كلامها ، فأردفت :

ــ وهو يرغب فى ابقائى بعيادته اربعا وعشرين ساعة .

وعنـدئذ سألها :

ــ هل ينوى أن يقوم باجراء الجراحة غـداً ؟

فأجابتـه :

ــ نعم . اذا طلبت اليه ذلك .

فقـال بمرارة :

---

(١) هكذا كتبته المؤلفة (Harid) ، ولعله تحريف «هريدى» .

ـــ سأطلب ذلك اليه . فليس لى فى الأمر خيار . أليس كذلك ؟

فقالت له بصوت غير ثابت كل الثبات :

ـــ لا خيـــار لكلينـــا فيـــه ..

وشعرت بأنهـــا لو استطاعت ان تلقى بنفسها الى جواره وتطلق لنحيبها العنان فسوف يخف كل ما تعانيـــه من توتر أعصابها، بيد ان نبرة صوته اشعرتها بأنه لن يطيق منها هذا.

وتحولت مبتعدة عن الفراش قائلة :

ـــ لا بد لى ان امضى لتحية كل هؤلاء الناس تحية المساء ، وسأبدى لهم عذرك ، وسوف يدركون ويقدرون . أما والداك فستراهما فى الصباح ، لأنهما سيقضيان هذه الليلة هنا ..

وعادت الى القاعة التى بها المحتفلون . وعندما لحقت به بعد ذلك ألفتـــه قد خلع ملابسه واندس فى الفراش واطفأ النور . ولم يكلمهـــا حين دخلت الحجرة ، فسألته بصوت خافت :

ـــ هـــل نمت ؟

فأجابها على الفور :

ـــ لا . أكنت تتوقعين ان تجدينى نائمـــا ؟

فقالت له :

ـــ لا . لا . طبعـــا لا .

وأرادت ان تطلب اليـــه ايقاد المصباح ، ولكنها خافت ان تقول له هـــذا ، فخلعت ثيابهـــا فى الظلام ، وارتدت قميص النوم ، ومشطت شعرها على عجل ، ثم رقدت بجواره .

ولم يتحرك . كان مستلقيا على ظهره فلم يحول اليهـــا رأسه . وبعد بضع لحظات مدت يدها ولمست خده بلطف ، وتوسلت اليـــه :

ـــ نصرى . كيف يمكن أن يشوب ما بيننا شىء وكل منا يحب الآخر ؟

فأمسك بيدها وابقاها فى يده .. ثم قال :

ـــ لأننا بشر .

فقالت له :

ـــ ان احساسى من نحوك لم يتغير منذ يوم زواجنا . ولم تهف نفسى الى احد سواك ، ولو للحظة واحدة . صدقنى ، أرجوك !

فأجابها :

ـــ انى أصدقك . ولكنى على الدوام ارى .. اوه . انت تعرفين ما الذى اراه . وليس فى وسعى ان اخرج هذا الذى أراه من ذهنى . لا استطيع ان افكر فى الحب بعد الآن . كل ما استطيع الآن التفكير فيه هو المضى من هنا .. للقتال .. لأقتل كل من استطيع أن اقتله !

وتقلصت راحة يده على يدها بعنف ، وكانت حرية أن تصرخ من فرط الألم . ولكنها لم تصرخ . وألح عليها قائلا :

ـــ حاولى أن تفهمى .

فقالت له :

ـــ انى أحاول حقا ..

ثم اردفت بضعف :

ـــ أنت تؤلمنى .

فخفف قبضته قائلا :

ـــ آسف .

وانقلب على جنبه فصار وجهه اليها ، وقال :

ـــ أفلا نحاول ان ننام ؟

فقالت له :

ـ ألا تريد حتى أن تقبلنى ؟
فقبلها فوق جبينها ، فقالت :
ـ هـذه لا تحسب !
فأجابها :
ـ اعرف هذا . ولذا لم افكر فى الاقدام عليها ..
فسألته بحزن :
ـ أهى افضل ما تستطيعه ؟
فقال لها :
ـ فى الوقت الحاضر : نعم .
فسألته :
ـ وهل تظن الحال سيكون افضل من هذا فيما بعد .. ؟
فأجابها :
ـ ارجو هذا . أؤكد لك انى اتمنى هـذا !
وجذبها الى جانبه والتصق بها ، ودفن وجهه فى كتفها وبكى ..

* * *

وبعد أن هـدأ نشيجه ، قال لها وهو يضمها اليه :
ـ لم اكن ادرى قبل وقوعى فى يد اليهود ان فى استطاعة المرء تعذيب الناس من غير أن يلمسهم بأصابعه . انهم لم يضربوا أحدا منا ، ولم ينتزعوا اظافرنا . لقد سمعنا حكايات كثيرة من هذا القبيل ففزعنا ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا شخصيا ، أعنى لأحد ممن كانوا معى فى حجرة واحدة على الأقل ، وكان عددنا نحو عشرين . وكان المبنى الذى اعتقلونا فيه كبيرا ، فظننا فى البداية انها مدرسة ، ولكننا لم نستطع أن نجزم بشىء ، لأنه لم تكن لدينا فى الواقع ادنى فكرة عن مكان وجودنا ، فعندما ذهبوا بنا الى ذلك المبنى لم

نجد ما يدل اطلاقا على الغرض الأصلى من تشييده ، وكل ما لاحظناه أن به فناء واسعا يحيط به سور مرتفع من الحجارة ، مما قد يصلح ملعبا لمدرسة .. والحجرة نفسها كانت خالية من كل انواع الأثاث ، فيما عدا دلوا موضوعا فى كل ركن من اركانها الأربعة ، ليس له غطاء . وقد تم نقلنا الى ذلك المبنى فى سيارة نقل مقفلة من النوع الذى يستخدم فى نقل الأغنام ! .. وكل ما هناك انهم ما كانوا ليكدسوا فى السيارة كل هذا العدد من الغنم ، لأنها كانت حرية ألا تصل وهى على قيد الحياة ! .. وظلت السيارة تدرج بنا عدة ساعات ، وانت تعرفين كم كانت الحرارة شديدة فى ذلك الحين ، فاشتدت علينا وطأة العطش . وبمرور الوقت اشتدت حاجتنا ايضا الى قضاء ضروراتنا العضوية . وقد توقفت سيارة النقل عن المسير عدة مرات ولكن لم يسمح لأى فرد منا بمغادرتها . وكان بجوار السائق فى المقدمة جنديان آخران منهم ، ولكن ما من أحد من الثلاثة — أى الجنديين والجندى السائق — يعرف العربية . ولكن احدهم كان يعرف الانجليزية فلجأنا الى مخاطبته بها ، وأخبرناه ان فريقا منا توشك مثاناتهم ان تنفجر ، وطلبنا اليه ان يسمحوا لنا بالنزول قليلا لهذا الغرض القهرى ، فضحك وأوصانا الا نضيع هذا البول كله سدى ، لأن فى وسعنا ان نتجرعه اذا ألح علينا الظما !

فسألته نادية عندئذ :

— وهل تكرر هذا ايضا فى طريق العودة ؟

فأجاب نصرى :

— لا . فالرحلة لم تكن بمثل ذلك الطول . فنقلونا الى احد مراكز المراقبة ثم تولى الحراس الاسرائيليون حراستنا

حتى الجانب الأردنى من الحدود . أما فى ذلك المبنى — كائنا ما كانت حقيقته — فقد كان الحراس الاسرائيليون يشعرون بالسأم الشديد ، مثلنا تماما ، لانهم لا يجدون ما يصنعونه . ولذا كانوا يتلهون بنا ، فما نحن الا شرذمة من العرب ، أى من الحثاله ، ولسنا بشرا ! .. ففى جوف الليل كنا نسمع صرخات يجمد الدم من هولها ، فينصرف تفكيرنا على الفور الى كل تلك الأقاصيص التى سمعناها تتردد من قبل عن انتزاع الأظافر . ثم يقوم أحد الحراس الليليين بفتح باب حجرتنا ويقف به باسما ليقول : **((من الذى عليه الدور ؟))** ، ثم يتلو بضعة أسماء . ثم يأخذ من تكون اسماؤهم من فريقنا الى الممر الخارجى ، حيث يقوم زملاؤه المنتظرون هناك ببنادقهم بربط أيدينا وراء ظهورنا ، ثم نساق فنهبط السلالم الى الفناء الكبير ، وهناك يوقفوننا ووجوهنا الى الجدار . وعندئذ يقول احد أولئك الحراس : **((ان كان منكم احد يريد ان يتلو صلاته الأخيرة فليسرع بأدائها))** ، أو يقول شيئا من هذا القبيل . ويشرع الجميع — مسلمين ومسيحيين معا — فى تلاوة الصلوات ..

فسألته نادية :

— وأنت ! هل كنت تتلو صلاتك ايضا ؟

فأجابها :

— بل كنت اصلى ولكن فى قلبى . أما لسانى فلم يكن ليتحرك .

فسألته :

— وماذا كنت تقول فى صلاتك ؟ هل كنت تذكرنى فيها ؟

فأجابها ، جادا :

— كنت اطلب من الله ان يعيش ابنى حتى ينتقم لابيه .

وكانوا يتركوننا فى هذه الحالة ساعتين ، والحراس يسيرون بلا انقطاع من وراء ظهورنا انتظارا لفرقة اطلاق النار التى لم تصل مطلقا ، وانتظارا لموت لم يحدث فعلا — وان حدث معنويا فى كل دقيقة بل كل ثانية من ذلك الوقت الطويل الرهيب ! — وفى النهاية يعيدوننا الى حجرتنا .. وبعد بضع ليال أخرى يأخذون مجموعة اخرى من حجرة مجاوره . **وننظر نحن من النوافذ والغثيان والجزع مستوليان علينا ، ونحن نتساءل واجفين هل سيفعلونها حقا فى هذه المرة أم هو اللهو الماجن** . وكنا ندرك أن المساكين المصطفين من تحتنا فى الفناء يعتقدون أن ساعتهم الأخيرة قد دنت ، مثلما كنا نحن نعتقد ذلك فى حينه .. كلا ! انهم لم يلمسونا كما قلت لك ، ولكنهم فقط كانوا يعذبوننا بالارهاب والرعب والاذلال .. وكانوا ايضا يجيعوننا .

فسألته نادية :

— وماذا كانوا يقدمون لكم لتأكلوا ؟

فأجابها :

— خبزا اسود وشيئا سائلا كالماء القذر يسمونه حساء . ولست اعتقد انهم كانوا يبدون لنا كراهية . حتى هذا كانوا لا يعتبروننا أهلا له . فهم المنتصرون .. وكل ما هناك انهم يحتقروننا ويزدروننا !

وظل نصرى راقدا بجوار زوجته ملتصقا بها ، متشبثا بأعطافها بين ذراعيه ، وهو يحدق فى الظلام ..

ورفت شفتاها على جبينه المبلل بالعرق . وناشدته بحنان قائلة :

— حاول أن تنام ..

فقال لها :

ـ لا أستطيع . فاني متى اغمضت عينى خيل الى انى عدت الى تلك الحجرة اللعينة ، وانى بعد لحظة واحدة سأسمع صرخة ، ثم وقع خطوات عسكريه ثقيله فى الممر الخارجى ، ويفتح باب الحجرة ليبرز جندى اسرائيلى يبتسم ابتسامه عريضة ويقول : ((من الذين عليهم الدور الآن ؟)) .. ثم يتلو اسماء من قائمة بيده ، واسمى من بين هذه الأسماء .. !

فقالت له :

ـ أنت الآن فى امان . لقد انتهى كل هذا الآن . انت هنا فى (رام الله) ، فى بيت خليل ، وقد صرنا معا مرة أخرى !

فاشتدت قبضة ذراعيه تعصرانها بكل ما فيه من توتر عصبى ، حتى انها لم تكد تطيق هذا الضغط الذى لا يدرى به ، وقال :

ـ انه شىء أشبه بالكابوس . وأنا اقاومه ولكنى لا استطيع أن اتحرر منه ، فهو يلازمنى باستمرار .

فهدأت من روعه قائلة :

ـ سيذهب هذا كله عنك . غدا سأسأل الطبيب أن يكتب لك حبوبا منومة . ومتى نعمت ببضع ليال من النوم العميق شعرت بتحسن كبير .. تأكد أن هذا كله سيذهب عنك .

وقالت فى نفسها بمرارة :

ـ ما الذى فعلناه كلانا فى أى يوم من الأيام بأى يهودى حتى ينزلوا بنا كل هذا العذاب ؟ بل ما الذى فعله اى عربى فى اى يوم من الأيام حتى يفعلوا بنا جميعا كل هذا الشر والبلاء المقيم ؟

— ١٠ —

قضى بطرس وماريان طيلة ذلك الصيف المحرق فى اريحا ، ولم يحظيا باستقبال زوار فيما عدا بضع زيارات رسمية قام بها الأعيان المحليون فى الأيام القلائل الأولى بعد وصولهما للترحيب بعودة بطرس الى دار السلام ولابداء اسفهم ومواساتهم له على ما ضاع من امواله واراضيه وداره فى (اللد) .

والحقيقة ان الزوجين لم ينعما على الاطلاق بأى نوع من الحياة الاجتماعية ، الى أن بدأ العام الدراسى فذهب انطون الى مدرسة الأمريكان فى (رام الله) ابتداء من اواخر سبتمبر ، وبعدئذ صارا يريان «فريد» كل بضعة اسابيع عندما يأتى معه بالغلام لقضاء عطلة الأسبوع مستقلين سيارة خليل .

وكان البنزين قد بدأ يوزع بالبطاقات بطبيعة الحال ، فكان من المستحيل على فريد وأنطون القيام بهذه الرحلة ما بين رام الله وأريحا فى فترات أقرب من ذلك . وكانا كلما قدما الى اريحا يرحلان عنها عائدين الى رام الله فى صباح الاثنين عند شروق الشمس أو بعده بوقت وجيز جدا .

وفى فترة عطلة عيد الميلاد جاء فريد ومعه ماجدة ونادية والطفلان فبقوا جميعا الى ان حان موعد اوبة انطون الى مدرسته فى آخر يناير .

وكانت نادية تفتقد نصرى كثيرا ، وكان قد رحل الى عمان ليتلقى تدريبا عسكريا فى صفوف الفيلق العربى ، ولكنها كانت تشعر بالسعادة فى دخيلة نفسها لأنها استطاعت

ان تنسى ذلك الحادث الفظيع الذى وقع لهـا فى اللد ، بعد ان اصبحت حبلى مرة اخرى ، ولكن من فصرى فى هذه المرة .

لقد حدث ما لم يكن يعتقـد نصرى انه سيحدث . فما ان تمت لهـا جراحة الاجهاض وبرئت منها بفضل شبابها القوى بسرعة ، حتى وجد نفسه وقد تخلص من الصدمة التى خالها ستحول بينه وبين زوجته الحسناء الى الأبد . وقبل أن يدرك ما حدث ألفى نفسه قد استعاد علاقته الحميمة بين أحضانها . واعقب ذلك التحطيم المـادى لآثار الصدمة تخلصه تدريجيا من آثارها المعنوية ، وتغير حاله من الشرود شبه المرضى الى الاقبال السوى على الحياة ومتاعها المبذول له كسابق عهده.

وقبل رحيله الى عمان بيوم واحد اقيمت له حفلة اخرى . ولكن ما ابعد الفرق بينها وبين حفلة استقباله الأولى . فقد اجمع الكل على ان هذه الحفلة الثانية كانت اشبه فى جوها المرح البهيج بحفـلات الأعراس .

وعن هذه الحفلة ايضـا تخلف آل منصور لأن بطرس كان متوعكا . الا أن فريد الذى تولى توصيل نصرى بالسيارة الى عمان فى صباح اليوم التالى حرص اثناء الرحلة على أن يمر على اريحا ليحظى الشاب الذاهب للقتـال بدعوات وبركات عم زوجته ورأس اسرتهـا .

ولم يكن نصرى قد رأى بطرس منذ اربعة اشهر . فصدم بمنظره . وخيل الى نصرى ان الرجل بدت عليـه الشيخوخة والعلة فجأة ، كأنما يد الموت قد شرعت تلمسه بالفعل . وكانت صحـة بطرس قد تدهورت كثيرا فى الواقع منـذ المسيرة المشئومة من اللد الى رام الله . وساءت حالة قلبه الذى كان يعانى منه منذ سنوات ، واخذ يشكو مر الشكوى من نقرس فى الفخذ ، حتى ان اهون الحركات التى كان يضطر الى القيام

بها كانت تؤلمه ولا يقدر عليها الا وهو يظلع ظلعا شديدا .

ولم تكن آلامه الجسدية كل ما ينوء به بطرس ، فحزنه واساه ويأسه ومرارته لم تكن اخف وطأة عليه من امراضه ، فتمخض اجتماع علة البدن وعلة النفس عن تحطيم ما بقى سليما من قلبه . كان قد اعتزل الدنيا فى هذا المكان متحملا حرارته القائظة أملا فى ألا يجد ما يذكره بداره واراضيه وثروته التى تركها فى (اللد) بين يدى معتدين غاشمين يسمون أنفسهم بالاسرائيليين ، بيد انه ظل يفكر فى ذلك كله كل يوم . بل لا تكاد ساعة من ساعات اليوم تخلو من استغراقه فى ذلك التفكير ، فالتهم هذا الهم روحه كما يلتهم السرطان خلايا البدن .

لم تكن فى رأسه فكرة سوى أن فلسطين لن تتحرر وهو على قيد الحياة .. فان كتب لأنطون ان يعيش ليشهد يوم ذلك التحرير — الذى قد لا يحين الا بعد خمسين سنة — فسيكون انطون يومئذ فى مثل سن ابيه الآن . **وفى ذلك الوقت ستكون الدولة الاسرائيلية التى فرضت عنوة وغدرا على قلب الوطن العربى قد آذنت بالزوال بفعل تيار التاريخ الطبيعى . لأن الظلم لا بد فى النهاية أن تدول دولته كى يسود الحق والعدل .**

بهذا كان يؤمن بطرس فعلا ، ولكنه لم يكن يأمل ان تأتى نهاية تلك الشرذمة الظالمة فى يوم قريب جدا ، وبصورة درامية خارقة ، على يد جيش للتحرير .. وان الدول ستفرض على الطرفين هدنة فى الوقت الحاضر . هدنة ترسم فيها حدود جبرية تحكمية . وسينتهز اليهود هذه الفرصة المواتية لهم كى يعززوا مكاسبهم ويحولوا ما أحرزوه من نجاح خاطف غادر الى نصر موطد الأركان .

* * *

وبمجرد أن بدأ البرد يشتد فى منطقة التلال اخذت جموع اخرى من اللاجئين تتدفق من رام الله عبر الوادى وعلى الطريق المفضى الى اريحا ، متوجهين الى القاع الدافىء لبرية تلك المنطقة المنخفضة . وأقاموا فى الكهوف أو على جوانب التلال القاحلة . ومنهم من نصبوا خياما مرتجلة . وكان عددهم بضعة آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال قادمين من اللد ومن الرملة ومن القرى والكفور المنتشرة فى تلك البقعة من الريف . وكلهم مهلهلو الثياب مشردون معدمون جياع . **وما هم فى الواقع الا جانب يسير — على ضخامتهم — من ذلك « الخروج » الفلسطينى الواسع الفاجع الذى يعتمد فى اقامة اوده وستر عريه على معونة غير مستقرة التنظيم كل هدفها ان تكفل لهؤلاء مجرد البقاء على قيد الحياة ولو فيما هو ادنى من المستوى المفروض لمعيشة البشر !**

ومن شرفة الطابق الأول فى دار منصور بأريحا يستطيع الناظر ان يرى فيما وراء جبل التجربة عند سفوح التلال مدينة كاملة من الخيام الممزقة والأكشاك الخشبية والاخصاص هى النواة الأساسية لما كان مزمعا ان يغدو اكبر معسكر للاجئين فى الأردن .

وكان بطرس وماريان يجلسان معا فى تلك الشرفة وينظران اليها من خلال أشجار السرو الطويلة فى حديقتهما . ولكنهما فى كثير من الأحيان كانا يحدقان فلا يريان شيئا لأن نظرتهما تكون قد امتدت الى بعيد فيتراءى لهما بيتهما فى اللد والممر الكبير فى الحديقة وعلى جانبيه اشجار الجزورينا واشجار النخيل الباسقة . وفى ذلك الاطار تتمثل أمام ناظر بطرس سحنة تلك المرأة الاسرائيلية المجندة التى بصقت عليه وأنذرته بأنه ما لم يسرع بالرحيل فلن تساوى حياته فلسا واحدا !

وكانت ماريان حين تنظر الى وجهه تقرأ ما يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات ، وتدرك انه لا يتألم لفقدان داره وأراضيه ونقوده وممتلكاته المادية فحسب ، **بل انه فوق آلامه الجسدية المضنية التى حاقت به نتيجة لتلك الهجرة الشاقة يشعر بألم اقسى وادهى لما اصاب كبرياءه من جرح ، ولما يشهده من اذلال جماعى للشعب الفلسطينى باسره . فحياتهم جميعا — وعددهم يقدر بمئات الألوف — لم تعد تساوى فلسا واحدا .**

وفى أول ديسمبر قررت حكومة الأردن ضم الضفة الغربية لنهر الأردن الى أراضيها . وكانت هذه الضفة هى كل ما تبقى من فلسطين العربية فيما عدا قطاع غزة . وهكذا انتهى وجود شرق الأردن كما انتهى وجود فلسطين فى العرف الدولى ، وحلت المملكة الأردنية الهاشمية الجديدة محل دولة شرق الأردن على تخوم فلسطين السليبة . وهكذا تلاشى آخر ملاذ لحلم الوطنيين الفلسطينيين فى بقاء شخصية وطنهم المستقلة تلاشيا تاما فى هذا الجانب . ولم يبق لذلك الحلم العزيز من موئل الا البقعة الصغيرة فى الجنوب حيث تحمى القوات المصرية غزة .

وفكرت ماريان فى أبيها . ولم تكن بحاجة الى خطاباته التى ينتقى ألفاظها بحيطة وحذر ومداراة كى تعرف ما يجول بخاطره وما يعتمل فى مشاعره .

وكان قد كتب اليها يقول :

— لماذا لا تأتيان كلاكما الى انجلترا ومعكما انطون ؟ ان فى الوسع ادخال انطون احدى المدارس الجيدة هنا فى انجلترا .

وقد ادركت المعنى الذى يرمى اليه بهذه العبارات .

واحست ان ما يعرضه لا يمكن قبوله ، لما فيه من معنى التخلى عن الوطن الفلسطينى نهائيا .

وكتبت اليه تقول :

ــ بطرس لن يغادر أريحا الا كى يعود الى (اللد) . وذلك يعنى بطبيعة الحال انه لن يغادر أريحا !

ثم حل بعد ذلك عيد الميلاد ، واعلن بطرس انه ينوى حضور صلاة قداس العيد فى كنيسة الروم الأرثوذكس بأريحا لأنه لا يجد فى نفسه ميلا للتوجه فى هذه المناسبة الى القدس . وذهب انطون معه الى تلك الكنيسة بطبيعة الحال . وكذلك ذهبت ماريان لأنها تريد فى ذلك اليوم أن تلازمهما .

كان يوما دافئا مشمسا برزت فيه صفحة السماء بهية الزرقة خالية من الغيوم ، وكانت الأزهار اليانعة تبرز فى كل مكان مطلة فى تزاحم حافل بالألوان والعبير فوق الأسوار القديمة والعريشات المخرمة ، ما بين خمرية اللون ، وقرمزية ، وحمراء قانية ، وبيضاء ، وذهبية . فكأن الدنيا فى عرس أخذت له الطبيعة زخرفها وازينت .

وشعرت ماريان وهى تدخل البلدة الصغيرة بما كانت تشعر به دائما من فتنة هذا الاقليم ذى المياه الراكدة . الا أن ما كانت تتسم به البلدة من الهدوء الذى يشبه التهويم للكرى قد انجاب عنها ، فاذا الشارع الرئيسى الآن ــ بأشجاره الصغيرة الملتوية المعروقة ــ قد غص بأناس غرباء يجوبونه على غير هدى . والنساء منهم مكتسيات بالأثواب المطرزة المعهودة فى القرى الفلسطينية . اما الرجال فعليهم سترات أوربية رثة فوق جلابيب بيضاء او مخططة تتهدل على اعقابهم . والرجال والنساء على السواء يسحب كل منهم وراءه سربا من الأطفال الصغار ، فى تجوالهم الذى لا يقر

له قـرار . فكل مرادهم ازجاء الوقت : وقت اللاجئين الذى لا نهاية له لأنه لا مشغلة لهم ، وبطونهم خاوية من الجوع . **ولكن قلوبهم أجوع من بطونهم واشد منها افتقارا الى ما يبعث فيها الحرارة والدفء .**

وتطلعت ماريان الى محيا زوجها المتجهم وهم فى السيارة — هى وبطرس وانطون — وكان يوسف يتولى القيادة ، وهى على يقين من أن ما يجول بخاطر بطرس مطابق لمـا يدور فى ذهنها : فهاهم الناس الذين عانينـا معهم مشاق تلك المسيرة الوحشية . وكل ما هنـاك اننا أسعد منهم حظا ، لأنه كان لنا مكان معد لاستقبالنا اتجهنا اليه . كان لنا بيت آخر ، أما هم .. فلم تكن أمامهم الا البرية !

وأحست ان الغضب والشفقة والألم تموج فى خليط مضطرم داخل صدر زوجها . وكذلك كان حالها ايضا . ولكن احساسه هو كان اشد ضراوة ، بما فى نفسه من نخوة الرجولة وبواعث الوطنية الجريحة .

وبعـد ذلك شملتهما الكنيسة الصغيرة الرطبة الأنفاس ، التى تملأ العتمة جنباتها ويفغم الأنف عبير بخورها ، ومن فوق رؤوسهم شمعدان ضخم به سبع شموع تضىء كأنها النجوم الدرارى فى تلك الظلمة ، رمزا للنور الذى أفاضه على الدنيا مولد المسيح بما جاء به من هـداية الروح ورسـالة الحب والسلام ونقاء الضمير .

ولم يقدر بطرس فى الجانب الأكبر من وقت الصلاة على تلك الوقفات الطويلة ، فجلس منتصب القامة الى الأمام فى مقعده ويداه متشبثتان بمقبض عصـاه . وبين الحين والحين يشير بيده راسما على صدره علامة الصليب ، مؤديا بذلك الحـد الأدنى من شعائر الصلاة ، بيد انه كان يتابع الطقوس التى يؤديها الكاهن بأقصى ما يمكن من الانتباه والاهتمام .

انه لم يكن من غلاة المؤمنين الاتقياء بطبيعة الحال ، ولكن الذهاب الى الكنيسة فى يوم عيد الميلاد أمر يقدم عليه المرء بحكم تربيته وتعوده ، مثلما يعطى الصدقات للفقراء ، أو مثلما يصيح بخدمه آمرا أو ناهيا ، او مثلما يقدم لضيوفه ونداماه شراب « العرق » وطعام « التبولة » ! .. فبطرس — فى الجانب الأكبر من السنة — ضعيف الايمان ، حتى اذا حل عيد الميلاد ، ومن بعده عيد الفصح ، جنح من عدم التصديق الى التصديق ، بحكم الرواسب التى فى نفسه من ميراث الجدود وتربية الأبوين ، فيدخل عندئذ الكنيسة ، غير متخل عن سمته واعتداده كأنه فى داره ، ولكنه يظل حاضر الذهن فى ضرب من الركوع المعنوى المجامل .

وكانت ماريان قد سألته ذات مرة فى فجر زواجهما :

— لماذا اذن تذهب الى الكنيسة ما دمت لا تؤمن ايمانا عميقا ؟

فافتر فمه عن ابتسامته الأسيفة وقال لها :

— لأننى فى هذين الأوانين من العام لا أكون واثقا تمام الثقة من مدى عدم ايمانى !

أما انطون فلم تكن فى نفسه ادنى ريبة ، وايمانه عميق . فوقف بجواره وراح يتابع كل ما يجرى عند المذبح ، بتركيز ذهنى نشوان . وامتلأت نفسه خشوعا وخشية لتلك الطقوس المقدسة التى يجرى أمام عينيه تمثيلها . وعندما حان وقت رفع القربان المقدس امام انظار الناس احنى رأسه فى صلاته العميقة وهو موقن من أن هذه اللحظة بالذات هى اللحظة التى تكون فيها الصلوات اقدر على الصعود الى ساحة الله واستجلاب رضاه .

وكان من عادته دائما أن يصلى طالبا من الله ان يعينه كى يحيا حياة صالحة ، وأن يحمى ابويه من كل شر مادى

ومعنوى . ولكنه فى هذا العيد — وهو أول عيد للميلاد فى فترة التشتت الفلسطينى — رفع الى اللـه صلاته كلها من أجل شعب ابيـه ، لأنه شعر بعد تلك التجربه الوحشية فى التيه انه قد صار هو وذلك الشعب شيئا واحدا فى الحال والمصير .

تضرع انطون فى صلاته الحارة الى اللـه أن تشاء مراحمه التى لا نهاية لهـا عودة شعب فلسطين المشتت الى وطنه السليب ، لأنه لا يليق بعدل اللـه ورحمته الا أن ينتصر الخير على الشر ، وأن يسود الحق والعدل كما وعد المؤمنين .



« .. وكان بطرس وماريان ينظران من شرفتهما الى خيام اللاجئين .. »

— ١١ —

كان أهم ما يشغل ذهن انطون هو الضراعة الى اللـــه ان يمنحه صديقا يشغل الفراغ الذى تركه « أمين » . ولم يكن اعزازه للصبى الأعمى قـــد تغير ، ولكنه لم يعد ملازما له . ولم تتحسن الحال عندما قام بزيارته فى مدرسة العميان ببيت لحم . وكان يحلم بقضاء أمين العطلة معه فى اريحـــا ، ولكن والدة أمين اصرت على التئام شمل الأسرة فى تلك العطلة . ثم ان قضاء العطلة مع امين ما كان ليشفى غليله لأنه يشعر بالحاجة المـــاسة الى صديق يملأ حياته كل يوم ، فى المدرسة وفى خارج المدرسة .

انه لا ينكر ميله الى بعض زملائه فى مدرسته الجـــديدة ، ولكنه ميل لا يصل الى درجة الجاذبية القوية والألفة الحميمة . فما من واحد منهم يمكن ان يقول عنه فى اعتداد وثقة « هـــذا صديقى » .

وكأنما استجابت السماء لدعائه الصامت فالتقى بعد عودته الى المدرسة أثر عيد الميلاد بزميل يدعى « وليـــد حسين » ، طويل القامة ، اسمر اللون ، جميل القسمات ، ولكن لا يبدو عليـــه انه يشعر بجماله . وهو اكبر سنا من انطون شيئا ما ولا يجمعهما صف واحـــد . وكان أول التقـــاء بينهما اثنـــاء اشتراكهما فى مشاهدة مباراة لكرة القدم . واول ما لفت نظر انطون الى وليد ان وليدا ابتعد عن الزحام فى فترة الاستراحة (الهاف تايم) واوغل بين اشجـــار السرو حيث جلس على الأرض تحت شجرة كبيرة منها ، مما دل على شعوره بالوحدة فى هذا الحشد من الطلاب ، فاتجه انطون اليه وباداه الحديث

حول المباراة واحتمالات الكسب . ثم تطرق الكلام الى موضوعات شخصية :

— من أى بلد أنت يا وليد ؟

— من (بئر سبع) . كان ابى مدرسا هناك ولكننا هاجرنا منها قبل دخول اليهود اليها وانتقلنا الى (الظهيرية) حيث اهل ابى . وهى من قرى الحدود . هل تعرفها ؟

— لا . فأنا من (اللد) . جئت الى هنا مع اسرتى فى الصيف الماضى واسمى انطون منصور .

— مسيحى انت ؟

— نعم . وأمى انجليزية ، ولكنها تعتبر نفسها فلسطينية . وضحك الفتى الأسمر وقال له :

— وانت ماذا تعتبر نفسك ؟

— عربيا بالطبع ، مثل أبى ..

— حسبك هذا عروبة ، بالاضافة الى مشاعر والدتك الشخصية .. اما جنسيتها الانجليزية فأمر ثانوى ..

ثم جلس انطون بجواره واسند ظهره مثله الى الشجرة وقال :

— ان عمتى متزوجة من مسلم .

— وما الفرق بين المسيحى والمسلم ؟ كلنا نؤمن بالله واحد.

— كان ابى من كبار الملاك فى اللد . من أكبرهم فى الواقع . ولنا بيت فى اريحا وبعض بساتين برتقال . ولكننا لم نعد أغنياء كذى قبل .

وضحك وليد وقال :

ــ ولكنكم لستم فقراء ! اما اهلى ففقراء . فقراء جدا ، وابى يشتغل الآن بالتدريس فى (المالحة) ، وعدد اسرتنا كبير جدا وأنا اكبرهم . وعمى مدير البنك قد تبنانى لأنه معجب بى ، وان كان يكره أبى ويزدريه ، لأنه اولا اذكى اعضاء الأسرة وثانيا لأنه اقلهم مالا فلا اهتمام له بشىء سوى العلم والتعليم . ولكن عمى يغيظه منى اننى لا اعرب له عن عرفانى بجميله اذ ادخلنى هذه المدرسة على حسابه . فهو فى الواقع لم يزد على ان قام بواجبه باعتباره اغنى رجل فى الأسرة ، ولأن الحظ قد خدمه فلم يصبح لاجئا مشردا . وستزداد خيبة امله عندما يعلم اننى لا انوى الاشتغال بالتجارة والأعمال المالية مثله بل أريد أن اكون معلما كأبى . ولكن ماذا تريد انت ان تكون ؟

ــ لا ادرى . فعندما كنا فى اللد قبل اغتصاب املاكنا كان المفروض اننى سأساعد ابى فى ادارة مزارعه . ولكنى لا اريد على كل حال ان اشتغل بالتجارة . وفى الوقت نفسه لا احسبنى مستطيعا ان اشتغل بالتعليم اذ تنقصنى براعتك .

ــ ومن ذا الذى قال انى بارع ؟

ــ هذا هو اعتقادى فيك . وقد قضيت الشهور الماضية هنا بغير صديق ، واتمنى ان تغدو انت صديقى .

ــ ولم لا ؟

ولم يهتم انطون بزيارة وليد فى بيت عمه ــ حيث يقيم ــ ولا بدعوته لزيارته فى بيت عمه هو « داود » ، حيث اولئك الفتيات السخيفات بنات عمته . ولكنه اهتم غاية الاهتمام بدعوته الى اريحا ، لا ليقدمه لوالديه فحسب ، بل ليجعل منه

جزءا من حياته هناك على الخصوص . وهو يعتبر اريحا وطنه الحقيقى الآن كما كانت اللد من قبل .

ولم تكن لدى وليد معرفة سابقة بأريحا سوى انه مر بها وهو فى سيارة عمه المسرعة . وقد سر بذهابه الى هناك مع انطون فى سيارة زوج عمته خليل وان كان الذى تولى القيادة هو عمه فريد . واعجب وليد بجمال بيت آل منصور هناك بين اشجار النخيل وبساتين البرتقال . ولكن اهتمامه الأكبر كان موجها الى تسلق الجبل مع انطون فى اقرب فرصة . وقد ترك ابوا انطون فى نفسه تأثيرا طيبا جدا واعجب بطلاقة لسان والده انطون الانجليزية وهى تتكلم العربية ، حتى لقد صارحها بأنه ما كان ليدرك انها انجليزية لولا ان انطون اخبره بذلك .

اما بطرس وماريان فأعجبهما تهذيبه وغفلته عن محاسن شكله وقوامه ، وسرهما ان يجد فيه انطون صديقا مخلصا ، وان كانت ماريان احست ان هذه الصداقة اعز لدى انطون منها لدى وليد ، وادركت ايضا ان وليدا اذكى من انطون واشد منه حيوية .. **وتنبأت بأن القيادة ستكون دائماً لوليد ، وان انطون سيقنع بدور التابع الأمين . وخشيت فى الوقت نفسه ان يسأم وليد يوما ما من ولاء صاحبه الصغير واعجابه الذى هو من قبيل عبادة البطولة ، فيتخلص من صحبته .**

ولكن انطون لم يشعر الا بالسعادة فى صحبة هذا الصديق الجديد الذى زادت مكانته على مكانة امين الأعمى . لأنه فى صحبة أمين كان ملزما بأن يجعل أمينا يرى الدنيا من خلال عينيه . اما وهو فى صحبة وليد فهو يرى الدنيا من خلال عينى وليد . كل ما يستملحه وليد فهو مليح وكل ما يستقبحه فهو قبيح !

وبدأ وليد يفكر فى مشروع لعطله عيد الفصح . ولكن هـذا المشروع يحتاج الى استخراج تصريحين رسميين سيتكفل بهمـا عمه مدير البنك ، على ان يذهبا اولا لقضاء ايام عند أقارب وليد فى (الخليل) ، وهم قوم فقراء يمتلكون حانوتا صغيرا لبيع مصنوعات الخليل الزجاجية المشهورة . وبعد الحصول على التصريحين يتوجهان الى (الظهيرية) حيث اهل ابيه الذين يفلحون قطعة صغيرة من الأرض بأيديهم . وهناك يستطيع الصبيان ان ينظرا على طول الطريق الى بئر سبع وان يتطلعا عبر الوادى الى الأرض المحتلة . **وقد يستطيعان التسلل الى هنـاك !**

— ولكن هذا التسلل خطر يا وليد . قد يقتلنا اليهود !

— خطر ولكنه ممكن . بئر سبع بلدى ومن حقى ان اعود اليهـا !

وفى هذا الحلم قضى انطون ايامه انتظارا لمقدم الربيع .

— ١٢ —

وفى يوم ٢٤ فبراير حـددت خطوط للهـدنة بين القوات الاسرائيليه والقوات المصرية . وفى اليوم الثـالث من ابريل وقعت الأردن فى (رودس) اتفاقا بشأن خطوط الهدنة بينهـا وبين الجيوش الاسرائيلية أيضا . ولكن خط الهدنة الأردنية الاسرائيلية قسم فى طريقه كثيرا من البلدان والقرى والأراضى الزراعية بحيث فصلت قرى كثيرة عن اراضيهـا ، **وقسمت بيوت كثيرة فى منتصفهـا بحيث كانت الحجرات الأماميـة فى الأراضى الأردنية والحجرات الخلفية تحت سيطرة اليهود ! .. وبلغ عدد القرى التى مزقت شذرا على هذا النحو ٢١١ قرية حرم سكانها من مصادر رزقهم وهى الأرض التى يفلحونها . وقد اشرف على هذه المباحثات الوسـيط الأمريكى الدكتور بانش الذى كوفىء باهداء جائزة نوبل للسلام اليه .. !**

وكانت القوات الاسرائيلية قـد زحفت على (العقبة) فى الجنوب فى اثناء هذه المباحثات فى شهر مارس ، كما تقدمت قوات اسرائيلية اخرى وتغلغلت بين مواقع الفيلق العربى فى منطقـة (الخليل) .

وكان بطرس يصغى الى الأنباء فى الراديو ويطالع الصحف التى تصل اليـه ولا يكاد يعلق بشىء على ذلك كله ، لأن احساسه بالكارثة كان تاما بعد ان تمزقت وحدة فلسطين ، وبعد ان ضم الى الأردن ما تبقى من وطنه الجريح . فلا اهمية فى نظره لشىء بعد ذلك . وهيهات ان يضير الشاة سلخها بعـد ذبحهـا !

لهذا كان بطرس يأبى الخوض فى حديث السياسة مع اخيه فريد حين يزوره ، ويعجب لتحمس فريد واهتمامه البالغ بما يحدث ، واصراره على ان فلسطين سيسترد حريته واستقلاله، ويجيبه باسما :

— لنواجه الواقع ! لقد قضى على شعبنا بالتشتت . وان كنت احسدك على ايمانك الذى لا يتزعزع . اشرب كأسا من الويسكى فانى احسبه اجدى عليك من ايمانك كله !

والحق ان بطرس كان يفرط فى الشراب . وكانت ماريان تبدى قلقها لسوء تأثير ذلك فى صحته . وشاركها فريد ذلك القلق . وكان بطرس يرد على ذلك دائما بأن الويسكى يريحه من الهم والكآبة وهما اضر بصحته من الافراط فى الشراب ، ويؤكد أن مشروبه المفضل هو الشىء الوحيد الباقى فى حياته مما يراه جديرا بالمناقشة !

ولم يكن بطرس صادقا كل الصدق فى ذلك . لأنه حين يخلو الى زوجته ماريان كان يناقشها فى امور جدية كثيرة ، منها مستقبل ابنهما . ولم يكن تظاهره بعدم الاكتراث بالسياسة الا قناعا زائفا . وهو فى الواقع كان يتجنب المناقشة ، لا لأنه غير مكترث بل لأن الموضوع يؤلمه ألما يجعل الخوض فيه فوق طاقته !

***

وكان انطون قد حصل من والديه على اذن بقضاء بضعة ايام من عطلة الفصح بالخليل . بيد ان وليد جعله يتعهد له بألا يبوح لوالديه بشىء عن ذهابهما بعد ذلك الى الظهيرية ،

خيفة ان يمانعا فى ذلك لقربها الشديد من خط الهدنة . وفى حالة الممانعة سيشعر انطون بتأنيب الضمير اذا خالف والديه.

وكان وليد يضيق بسلطان الأبوين ويعتبره فضولا مرهقا . ولذا اقترح على انطون ان يخبر ابويه بذهابهما الى الظهيرية بعد عودتهما من هناك . وما من شىء ادل على وقوع انطون تحت سيطرة صديقه الجديد من قبوله ذلك الوضع ، خارجا بذلك على ولائه لوالديه لأول مرة فى حياته !

والحقيقة ان وليدا كان ينظر الى الأمور نظرة تختلف عن نظرة انطون اليها . فهو لا يتردد فى الخديعة والكذب اذا كان ذلك كفيلا بوصوله الى هدفه . اما انطون فهو على العكس من ذلك . والاختلاف بينهما ناجم عن اختلاف الطبائع والمزاج لا عن اختلاف العقيده بطبيعه الحــال . فالكذب فى الدينين حرام ، وعدم اطاعة الوالدين فى الدينين حرام . ولكن التكوين النفسى لا يتقيد دائما بنواهى الدين واوامره .

وكان قد تقرر ان يتولى يوسف ، خادم بطرس فى اريحا ، توصيلهما الى الخليل فى السيارة على ان يعود لاحضارهما فى اليوم المحدد . وفى ساعة مبكرة من الصباح بدأت الرحلة بين التــلال الصخرية والرملية الجرداء الى القدس القائمة فوق تلالها الشهيرة مشرفة على الوادى العميق . وكان وليد مشوقا الى مشاهدة المدينة المقدسة التى لم يرها منذ اكتوبر الماضى ، اما يوسف فكان فى حالة عصبية سيئــة لخوفه من القناصة اليهود وهو يقود السيارة على طول المنطقة الحرام بما فيها من بيوت قوضتها القنابل وحدائق وغياض من اشجار الزيتون العتيقة وقد اهملت وتكاثرت فروعها على غير نظام . فكان همه كله فى الوصول الى بر الأمان واجتياز القدس بسرعة للتوجه جنوبا الى الخليل .

ولما صارت القدس وراء ظهورهم شرع وليد يكلم صديقه بالانجليزية للتعمية على يوسف ، فقال انهما سيذهبان فى الغد الى الظهيرية حيث يقيم جداه . وسيكون ذهابهما على دراجتين يقترضانهما فى الخليل . والمسافة لا تزيد على عشرة كيلو مترات . وهناك عند نقطة للمراقبة تمر الطريق المتعرجة بين التلال الى بئر سبع . ولكنك لا تستطيع بطبيعة الحال ان تسلك تلك الطريق لأنك ستصادف بعد بضعة اميال لافتة بالعبرية تشير الى خط الهدنة . **وستجد الحراس الاسرائيليين على قمم التلال من الجانبين يأكلهم الضجر متلهفين على تسلية انفسهم باطلاق الرصاص على اى انسان . وهكذا تعجز عن الوصول الى مسقط رأسك وانت على قيد كيلو مترات قليلة منها !**

وفتن انطون بالثقة ولهجة الجد اللتين يتحدث بهما وليد ، وازدادت مكانته فى نظره وهو يسمعه يقول :

ـــ ان اهل ابى فى الظهيرية فلاحون فقراء كما قلت لك . ويقيم معهم الآن عمى منير الذى هاجر معنا من بئر سبع وكانت له فى ضواحيها ارض واسعة تغل عليه رزقا طيبا ، وكانت له غيضة برتقال وحديقة خضر ودواجن يبيع ثمراتها فى سوق المدينة كل اسبوع . وقد صارت كل هذه الأراضى الآن وراء خط الهدنة . ولكننا نستطيع ان نراها عبر الوادى ونميزها بأجمة الزيتون . وعمى يقول ان من واجب الفلسطينيين التسلل عبر خط الهدنة لا لالتقاط شىء من ثمار بساتينهم المغتصبة او لزراعة جانب من الأرض التى تسمى الآن بالشقة الحرام ــ فذلك لا يستحق العناء والمجازفة ــ **بل للاتصال ببقية الفلسطينيين العرب المقيمين فى الأرض المحتلة لتنظيم حركة جدية بالتعاون معهم . بيد انه يقول ان الأوان لم يحن بعد**

لتنظيم المقاومة . فلا بد لها من استعداد . ولكن يومهـا آت لا ريب . فليس أمامنا سبيل آخر لتحرير بلادنا بأيدينا كما هو واجبنـا . ولا أكتمك انى كنت أحلم اثناء زيارتى لوالدتى فى المالحة بأن القوات العراقية التى كنت ابصر معسكرها خارج البلدة سوف، تتحرك يوما للانقضاض على حدود الأرض المحتلة والقضاء على اليهود وتحرير الوطن . ولكن هذا الحلم تبخر مع الزمن بعد أن اسعدنى فترة من الوقت . وأنا الآن واثق ان فلسطين يجب ان يتحرر بيد ابنـائه قبل كل شيء . وان الآخرين لا يمكن ان يساعدونا من غير ان نساعد نحن انفسنا . **ولهذا السبب يا أنطون قررت ان اصبح معلما . فالمعلم له تأثير هائل على تلاميذه ويستطيع أن يحفزهم للنضال والتضحية . والنضـال والتضحية فى سبيل حرية فلسطين همـا أحوج ما نحتـاج اليـه .** وأتمنى بعـد سنوات قلائل أن يتاح لى التعليم فى مدرسة (الظهيرية) .

وكان يوسف ينظر فى اشمئزاز الى الحارة الضيقة الطافحة بالنفايات التى أمر بالدخول فيهـــا عند وصولهم الى مدينـــة الخليل العتيقة . وازداد استياؤه وتوجسه عندما أمر بالوقوف بالسيارة قبالة بيت قديم متصدع يحتل واجهته حانوت لبيع المصنوعات الزجاجية الملونة والخرز والحلى الرخيصة ، كى ينزل السيد الصغير وصديقه .

ويوسف ينتمى الى بيئـــة كهذه تماما فى اللـــد . ولو خير لاختار البقاء هناك قانعا بحياته ، ولكن أمانته لعمله تجعله لا يرضى لابن سيده ما يرتضيه لنفسه . وقال قبـــل انصرافه انه سيعود ان شاء اللـــه بعد غد . وكرر ذلك لسيده الصغير فى حزم . ولكن استياءه من نزول ابن بطرس منصور فى هذا البيت لم يمنعه من قبول الدعوة بكل سرور لاحتساء كوب من الشاى فى ذلك الحانوت المتواضع قبل أن يتجشم مشاق الرحلة المضنية عائدا الى اريحـــا .

وصعد وليد مع صاحبه سلما معتما داخل البيت ليقـــدمه الى خالته وأبنائها وبناتها . وكان وليـــد يحب خالته لشدة شبهها بأمه التى كان يحبهـــا اعظم الحب .. وخالته هـــذه سوداء العينين ، فى منتصف العمر ، تتموج خصلات شعرها الأشيب فوق جبينها من تحت طرحة بيضاء ، وقوامها النحيل مختفٍ تمـــاما تحت ثوب طويل من الصوف الرمادى . وهى ذات ابتسامة عذبة وبشاشة استطاعت أن تمحو بهما خجل انطون المعهود امام الغرباء .

وكان واضحا جدا أن وليدا سعيد غاية السعادة بلقـــاء خالته وأولادها ، اذ قبل يدها ولاعب اولادها الصغار وبـــدا

عليه الانطلاق على سجيته بصورة لم يعهدها فيه انطون من قبل ، وهو الذى يعرفه فى المدرسة متعاليا منطويا شديد الاعتداد بتفوقه الذهنى . أما فى اريحا فوليد على الدوام ابعد ما يكون عن الانبهار بالبيت الفخم والمكانة الاجتماعية الرفيعة التى يتمتع بها بطرس بك . أما هنا فى الخليل بين أهل أمه فهو شىء آخر . انه فرد فى اسرة .

وغبطه انطون على هذه الطلاقة التى لم يشعر بمثلها شخصيا وهو فى بيت داود مع بنات عمته وزوجها ، فيما عدا بعض اللحظات القلائل التى يقضيها منفردا بابنة عمته ((ثريا)) .

وزوج خالة وليد صاحب ذلك الحانوت المتواضع رجل جم النشاط ، ذو شارب صغير أنيق وابتسامة ودية لا تفارق شفتيه . ولديه قدرة على اجتذاب قلوب زبائنه واقناعهم بسهولة انه يكرم كلا منهم فى الأسعار اكراما خاصا . وكان ابنه الأكبر فؤاد يساعده فى أعماله ، وهو شاب وسيم رقيق الحاشية بارع فى الاقناع براعة ابيه الذى اعفاه من العمل فى ذلك اليوم ليصحب ابن خالته وضيفه فى تجوالهما هنا وهناك داخل البلدة وضواحيها .

وتعجب فؤاد عندما عرف من انطون انه رغم بلوغه الثالثة عشرة لم يزر انجلترا مرة واحدة ، حيث يقيم جده لأمه . وسأله :

— ألم تذهب والدتك الى وطنها مرة واحدة ؟

فابتسم انطون وقال :

— **انها تقول دائما ان فلسطين وطنها .**

— لم يعد لهذا الوطن وجود !

وعندئذ تدخل وليد فى الحديث بسرعة قائلا :

ـ بل سيعود الى الوجود اذا جاهد الفلسطينيون لاستعادته !

ـ على أيام احفادنا او ابناء احفادنا !

ـ بل قد يحدث ذلك فى ايامنا . كل شىء يتوقف علينا !

ـ وما رأيك انت يا انطون ؟

ـ وليد على حق يا فؤاد . فلو استطعنا تنظيم حركة للمقاومة فى الأراضى المحتلة ..

ـ فكرة جميلة . ولكنها مجرد حلم !

وعندئذ ثار وليد وقال لابن خالته :

ـ واسرائيل ؟ الم تبدأ فكرتها بحلم أشد من هذا الحلم امعانا فى الخيال ؟ لو سيطر هذا الحلم على قلوب مليون فلسطينى شاب فلا بد ان يحفزهم على تحويل الحلم الى حقيقة ، بالاصرار والكفاح !

* * *

ولم يصحب فؤاد وليدا وانطون الى الظهيرية فى اليوم التالى لأن أباه كان بحاجة اليه كى يعاونه فى الحانوت . ولكن وليدا استعار منه دراجته للذهاب الى الظهيرية ، وحصل لأنطون على دراجة أخرى ، وانطلق الاثنان فى الطريق الأبيض المترب ـ طريق بئر سبع ـ صوب الحدود . وهى طريق كثيرة المنحنيات تحف بها التلال الجرداء البركانية والصخور وكتل الحصى والجلاميد . وبين الحين والحين كانت تطالعهما حقول صغيرة يحرثها رجال ونساء مستعينين بالجمال والبغال .

وقال وليد لأنطون وهما على الطريق :

ـ عندما كنا نقيم فى بئر سبع كان من عادتنا أن نذهب بالسيارة العامة من هذا الطريق نفسه لزيارة خالتى فى

الخليل . وفى بعض الأحيان كنت أذهب الى هناك مع بعض اخوتى بالدراجة ونستريح فى منتصف الطريق بالظهيرية . **أما الآن فلا نستطيع ان نتجاوز الظهيرية بأكثر من تسعة كيلو مترات بسبب خط الهدنة . ولذا أصبح طريق بئر سبع مهجورا ، وهو الطريق الذى كان يسلكه الناس من قبل الى القاهرة بغير عائق !**

وبعد أن قطعا فى الطريق نحو ساعة انفسح الأفق أمامهما وأبصرا قرية صغيرة على جانب تل يبعد عن الطريق قليلا فصاح وليد :

ـــ الظهيرية ! ولكنى أحذرك من خيبة الأمل عندما ترى بيت جدى . فهم فقراء جدا . ولكنهم سيرحبون بنا أحر ترحيب .

وبين صفوف من البيوت المبنية بالطين وقد تصدعت جدرانها ، وخرجت منها كلاب هزيلة نابحة يزيد عددها على عدد أشجار التين ويكاد يتساوى مع عدد الأطفال الحفاة فى اسمالهم البالية ، شق الرحالتان طريقهما . وفجأة ظهر غلام فى جلباب رث مخطط ورحب بوليد وعانقه وقبل وجنتيه ، وقدمه وليد لأنطون :

ـــ ابن عمى سعيد .

وقال سعيد ان أباه وجده فى الحقل ولكن امه والأطفال و « جدته » فى البيت . وانه سيصحبهما الى الحقل بعد أن ينالا قسطا من الراحة ويشربا الشاى ويغتسلا .

ودخلا فناء تغمره الشمس ويلعب فيه عدد من الأطفال الصغار تحت نظر امرأتين احداهما بدينة عجوز والأخرى نحيفة شابة مليحة الوجه تعجن جانبا من الدقيق فى وعاء أمامها على الأرض . ونهضت هذه الشابة ورحبت بوليد وضيفه . وعرف انطون انها عمة وليد وأن العجوز جدته . وقام وليد بتقديم انطون وأوجز تاريخ حياته فى كلمات قلائل

للمرأتين . وكان اهم ما اوضحه لهما أن اسرته من اللد وانهم من بين من اخرجهم اليهود من ديارهم . واظهرت المرأتان عطفا بالغا على انطون وما منيت به اسرته من الشدائد .

ثم خرجت زوجة عمه منير من البيت حاملة خوانا نحاسيا تعلوه أكواب الشاى ، مرتدية ثوبا فضفاضا اسود اللون مزركشا من الجانبين بنقوش حمراء . وخيل لأنطون من فرط رقتها انها تطير فى الهواء ولا تمشى على الأرض ، وذكرته عذوبة ملامحها بأيقونة قديمة للسيدة العذراء .

وبعد احتساء الشاى وتبادل كثير من الأسئلة عن أحوال الأقارب والمعارف نهضوا جميعا وتولى سعيد قيادة الغلامين وسط تيه من الأزقة الى الأرض المكشوفة التى تحف بها التلال .

ووسط الحقول التى يعمل الرجال والنساء فى فلاحتها مستعينين بالجمال والبغال أبصرا دربا غير ممهد يسلكه الناس ويؤدى فى النهاية الى ارض عراء تحت سفوح التلال الصغيرة تشغلها عشرات من خيام البدو السوداء .

ولاحظ وليد أن انطون يرمق تلك الخيام السوداء باهتمام ، فقال له :

ــ هؤلاء ايضا لاجئون . لا مورد لهم هنا الا عطف أهالى المنطقة الفقراء .

وعبر الثلاثة دربا آخر وساروا قليلا فوق التربة الحمراء الى أن بلغوا قطعة من الأرض يقوم بعزقها رغم وعورتها وكثرة الصخور فيها شيخ متقدم فى السن ، وشاب وسيم فى نحو الخامسة والثلاثين .

وانتصب الرجلان عندما ابصرا الغلمان الثلاثة يقتربون منهما . ثم لم يلبثا ان اطلقا صيحات الدهشة والترحيب . ومرة أخرى كان على وليد ان يدلى لعمه « منير » وجده

بالبيانات الكافية عن زميله وصديقه أنطون . وما ان عرف منير بغرضهما من هذه الرحلة وهى مشاهدة (بئر سبع) عبر الوادى حتى تأججت حماسته واظهر اهتماما بالغا ، وتطوع من تلقــاء نفسه بأخذهما الى ذلك الموضع من التلال الذى يستطيع الواقف فيه ان يرى — عبر الوادى — ارض منير ، وبساتين البرتقال ، ومزرعة الدواجن ، وأجمة الزيتون التى استولى عليها اليهود ويستغلونها الآن اسوأ استغلال !

— ١٤ —

سار أربعتهم فى درب وعر مسافة لا تزيد على بضع ياردات الى أن بلغوا جانب التل فارتقوه ، ليجدوا امامهم منظرا فسيحا لواد متماوج الأديم ، تحــده من الجانب الآخر سفوح جبال صغيرة قائمة الارتفاع كأنها الجدار الأصم ، وقد بدت الأرض فى أشعة الشمس اللطيفة فى تلك الظهيرة من شــهر ابريل جميلة وادعة .. فوقف السائرون برهة صامتين ينظرون فى جنبات ذلك الوادى ، وقــد استولت على مشاعرهم المفارقة المذهلة : بين الجمال الآمن والوحشية الغاصبة التى تتمثــل فى التفريق بين هذه الأرض الموروثة وبين أبنائها الذين امتزجت أجساد اجدادهم بترابها ، ورووا اديمها بعرق جباههم سنين عــديدة ..

وقطع الصمت الحزين المتوتر قول الرجل المسن مهمهما : « يا لأرضنا الجميــلة السليبة ! » .. وكأنما كانت هــذه الكلمــات ايذانا لكل منهم بأن يقول ما يجول فى خــاطره ، فلمس منير ذراع انطون وقال له :

— أترى شــجرة الزيتون تلك التى تتراءى هنــاك عن

يسارك ، فوق مستوى الأرض بقليل ، عند أولى بدارى هذا التل ؟

— نعم . تلك التى هناك قرب النخلات الثلاث .

— تلك زيتوناتى . ومن تحتها حديقة خضرواتى . كيف لا يدرى كل من ينعم بهذه الثمار انه انما يشترى سلعا مسروقة . سلعا مغصوبة من أصحابها الشرعيين ؟

وتأثر انطون تأثرا شديدا ، ولكنه غالب تأثره وقال : « يوما ما ستزرع هذه الأرض بنفسك مرة أخرى ! » .. فقال الشيخ المسن فى همهمته الخفيضة : « ان شاء الله يابنى . ان شاء الله . » .. ولكن منير أجاب بحدة : « سواء زرعتها أو لم ازرعها بنفسى ، فيوما ما سأعود ! »

ثم استداروا بوجوههم ومشوا فى صمت عائدين الى الطريق الرئيسى ، وقد أصبح طريق (بئر سبع) باديا للعيان بوضوح تحت أقدامهم .. ذلك الطريق العتيق الذى يتلوى ويتعرج بين التلال الجرداء التى تطبق عليه من الجانبين .

واستوقف « وليد » « انطون » ليشير له الى الطريق ، وقال : « ليس فى وسعك أن ترى (بئر سبع) من هنا ، لأنها تقبع متوارية هناك خلف تلك التلال . والحراس الاسرائيليون جاثمون على رؤس التلال على جانبى الطريق » .

وقال منير : « اننا كثيرا ما نراهم ونحن نعمل هنا فى الحقول ، وينظرون الينا من فوق ونحن نعمل . ونحن نعلم انهم هناك يرقبوننا ، وهم يعلمون اننا نعلم ذلك » .

فاستطرد وليد : « وعلى هذا الجانب نقطة مراقبة بها جنود من الحرس الوطنى الأردنى يستطيعون من موقعهم العالى أن يروا الطريق الى مسافة بعيدة بوضوح . وبتصريح منهم تستطيع أن تمضى حتى الأحجار البيضاء الدالة على خط الهدنة . فاذا تجاوزت ذلك الموضع وجدت الطلقات

الاسرائيلية فى انتظارك من جانبى الطريق . و (بئر سبع) لا تبعد أكثر من خمسة عشر كيلومترا ، للسائر من هذا الطريق . تصور هذا ! انها مسافة لا تزيد على المسافة التى قطعناها من الخليل الى هنا ! ولكن الطريق لا يصلح الا وسيلة للهداية المؤقتة ، لأنك متى أوغلت فى الوادى غاب الطريق عن نظرك وراء التلال . فاذا درت حول التلال صرت فى محاذاة الطريق مرة أخرى .. ! »

وكان « سعيد » قد لحق بهم ، فقال ضاحكا : « جميع التفاصيل واضحة فى ذهن وليد . حتى لتحسبه وهو يتكلم قد أعد خطة مفصلة للتسلل ! »

فأجاب وليد ، جادا : « **هذا صحيح . ولكن الأوان لم يؤن بعد . فلا بد لى من قضاء عطلات كثيرة أخرى هنا ادرس فيها كل صخرة وكل مسلك ، الى أن يمسى فى استطاعتى التعرف على طريقى فى ليلة ظلماء لا قمر فيها . بل ينبغى أن**

آتى وأعيش وأعمل هنا حتى يألف جنود الحرس الوطنى والبدو منظرى ويصير فى مقدورى أن اغدو واروح من غير ان أثير ريبتهم أو فضولهم ! »

فرمق منير ابن اخيه بنظرة اعزاز وسرور وهم عائدون فوق الأرض المحروثة فى اتجاه القرية ، ثم قال بعد برهة :

ـــ يبدو انك رتبت كل شىء سلفا !

ـــ ليس كل شىء . ولكن كل شىء سيكون معدا بجميع تفاصيله عندما يحين وقت استعدادى للانطلاق ..

وفى البيت جلسوا مرة أخرى فى الفناء المشمس فوق عدد من الوسائد والحشايا ، وانعشوا أنفسهم باحتساء اكواب الشاى الصغيرة ، فى حين انصرفت النساء وبصحبتهن نساء الجيران اللواتى جئن كعادة العرب للمساعدة فى المناسبات ، كى

يصنعن عـــدة ألوان من الطعام فوق مواقد مكشوفة صنعنها من قوالب الآجر .

وفى خلال الانتظار الطويل لنضج الطعام ، وجــه منير الى انطون أسئلة حول المسيرة المشهورة من (اللــد) ، وحول الأحوال فى (رام اللــه) عندما تدفق عليهــا المهاجرون من اللــد وغيرها ، وعن أريحا وما صارت اليه الآن .. وحدثه من جانبه عن بئر سبع .. وشعر أنطون بحداثة سنه وعدم كفاءته لهــذا الحديث ، وتمنى لو أن أباه كان حاضرا لينهض بادارة دفة الحديث على خير وجــه . بيد أن «منير» أعجب بالغلام كثيرا وناشده ان يقنع اباه بابقائه هنا فلا يرسله الى الجامعة فى انجلترا بعد اتمام علومه الثانوية :

— ابق هنا واعمل مع «وليد» كى تكون واحدا منا !

واجاب انطون انه كان يود ذلك ولكن والده مصمم . واردف :

— فى وسعى دائما ان اعود .

— ان شاء الله . ولكن المرء لا يستطيع ان يكون على يقين من امر العودة . فما ان تغادر مكانا ما حتى تجد من الصعب جدا فى بعض الأحيان ان تعود اليه . هــذه تجربتى وتجربة كثيرين .

وغدا الحديث عموميا . ونهض وليد بجانب كبير منه فى براعة، ففاضت نفس انطون بالاعجاب به . **فما اروع ان يكون للمرء صديق لامع كهذا . وتمنى من اعماق قلبــه ان تمر السنون سراعا كى يقارب وليــدا فى المستوى الثقافى والذهنى .** وخطر بذهنه انه حين يغدو فى السادسة عشرة ووليد فى الثامنة عشرة لن تكون الهوة بينهمــا بهذا العمق .

وبعد اكثر من ساعة اقبلت زوجة منير فدعتهم الى الطعام ، فنهضوا أولا الى ركن من الفناء حيث قام سعيد بصب المــاء

على ايديهم من ابريق نحـــاسى له ميزاب طويل . وجففوا ايديهم بقطعة من القماش الأبيض النظيف ، ثم دخلوا الدار .

وبدا داخل الدار فى البداية شديد العتمة . ولكن عنـدما تعودت العيون على تلك العتمة رأوا امامهم مائدة مستديرة منخفضة جدا ــ «طبلية » ــ موضوعة على الأرض فى وسط الحجرة وعليها أطباق كثيرة ، تتوسطها قصعة بها تل ضخم من الأرز باللوز ، وقد دست فيه ارباع من الدجاج المحمر . وكانت النساء قد انتهزن فرصة انشغال الرجال بغسل ايديهم فأتين بالوسائد والحشايا من الفناء ووضعنها حول «الطبلية» .

وجلس منير وابن أخيه وضيف ابن أخيه . ولمـــا كان انطون ضيف الشرف فى تلك الوليمة فقد دس منير يده فى جبل الأرز واستخرج قطعة ممتازة من الدجاج المحمر قدمها اليــــه .

ولم يكن انطون قد جرب الأكل على هذه الطريقة من قبل . وقد وجدها طريقة طريفة، لولا انها صعبة على من لم يتعودها . وبطبيعة الحال كان اكل الدجاج باليدين اسهل من اكل الأرز بلقم كبيرة من الخبز .

ولم تأكل النساء مع الرجال بل انصرفن لخدمتهم. وعندما قارب الطعام نهايته ذهبت زوجة منير لتصنع القهوة ، وعاد الرجال الى الفناء حيث غسلوا ايديهم واسترخوا فترة قصيرة فوق الحشايا وهم يحتسون القهوة العربية المرة السوداء .

وبعد قليل اعلن وليد انه لا بد ان يشرع وصديقه انطون فى رحلة العودة الى الخليل ، فخرجت الأسرة عن بكرة أبيها الى الطريق الرئيسية لوداعهما ، وألحوا عليهما بتكرار هذه الزيارة فى وقت قريب ، ثم شيعوهما بالكثير من صيحات «مع السلامة » ودعوات الرعاية والتوفيق .

وقال وليد بحرارة ، وهمـــا يدرجان بين التلال الجرداء : « انهم قوم طيبون . وأنا اشعر دائما بالأسى عند فراقهم . ولكنى سآتى يوما ما واعيش بينهم ، وسأحضر معى والدى . » .. ثم ضحك ضحكة سعادة صافية ، واستطرد : « **سنكون عندئذ معا مرة أخرى ، على طريق (بئر سبع) ! وانى لآمل ان تأتى عندئذ وتستقر معنا هنـــا . وسنعد العدة للتسلل الى (بئر سبع) معا يا عزيزى انطون !)»**

فأجابه انطون بحماسة :

— ان شاء الله !

— ١٥ —

تركت زيارة (الظهيرية) فى نفس انطون اثرا عميقا ، وظل يفكر فيهـــا باستمرار عنـــد عودته ، ويدير فى رأسه الأمور التى حدثه عنهـــا « وليـــد » وعمه حول طريق (بئر سبع) القديم الذى لا يجسر الآن انسان على السير فيـــه ، بسبب قناصة اليهود المتربصين فى التلال على جانبيه وعند منعطفاته الكثيرة .

وكان رد الفعل لديه لأحاديث وليد — عن التسلل وانشاء حركة مقاومة داخل اسرائيل — لا يعدو ان يكون ضربا من خيالات صبيان المدارس فى ذلك الحين ، ولكن كانت فى تلافيف هـــذه الخيالات بذور مختمرة لأفكار غرسها « وليد » فى ذهنه الغض .

واستطاعت الحياة العادية فى المدرسة ان تستأثر بعد حين بمعظم اهتمام انطون ، ولم تعد القضية الفلسطينية ذات شأن كبير فى نظره . ووليد نفسه شغله الاستعداد للامتحانات عن

الخوض فى موضوع القضية الكبرى وتحرير الوطن السليب من ايدى الغاصبين .

وطغت حرارة الصيف المخيفة مرة اخرى على (اريحا) ، فظل انطون مقيما فى (رام الله) . وارهقت هـذه الحرارة اعصاب ماريان الى حد الاعياء ، فراح بطرس يحثها باستمرار على الصعود الى التلال الرطبة . ولئن كانت غير ميالة للاقامة فى رام الله مع منى وخليل ، ففى وسعها على كل حال ان تقيم مع والدى نصرى فى بيتهم بضواحى القدس . وان كانت كارهة للذهاب الى هناك وحدها فهو مستعد أن يذهب معها وان يبقى بجوارها بضعة أسابيع .

وكان ردها على مثل هـذا الكلام ابتسامة اعزاز ، ثم كانت تعيـد عليه قولها الذى تكرره دائما : « **ان البقاء حيث نحن يتقاضانا مجهودا اقل من الانتقال الى اى مكان آخر ، بحيث تبدو الحرارة فى ظل الراحة امرا محتملا.** » .. فقد كانت تعلم ان بطرس لا رغبة لديه فى مبارحة بيته بأريحا . وانه يفضل تحمل الحر المحرق على الاضطرار لمجاذبة اطراف الحديث مع من يلتقى بهم من النـاس متى غادر ذلك البيت ، فان (دار السلام) بأريحا هى واحة الأمان الوحيدة له فى هذا العـالم المنقسـم .

.. وكذلك كانت زوجته ماريان ، تؤثر عذاب الحر على ضجة الحياة العائلية الصاخبة فى بيوت اصهارها . وكانت تذهب الى سوق اريحا احيانا مع الطاهى يوسف او زوجته لشراء لوازم البيت أو احضار البريد . وكان والدها يرسل اليهـا الطبعة الاسبوعية من « التايمز » بالبريد الأسبوعى ، كما ترسل اليهـا امها بطريق البحر احدى المجلات النسائية الحافلة بوصفات للطهو بعيدة عن التوفيق ، ونماذج للازياء

اشد بعدا عنه ، وقصص غرامية لا يمكن ان تدخل فى عقل انسان راشد . وكانت امها تصر على موافاتها بتلك المجلة كى تبقى على اتصال بما يجرى من حياة عائلية للطبقة الوسطى فى انجلترا . ومن حين لآخر كان والدها يرسل اليها ملحق « التايمز » الأدبى لتظل على اتصال بالثقافة الانجليزية والعالمية .. وهكذا كانت ماريان تجلس فى الشرفة بجوار المروحة عندما يشتد الحر ، وتأخذ فى تقليب صفحات هذه المطبوعات وفى ذهنها من الهمود ما يمنعها حتى من قراءة العناوين بطريقة مجدية !

اما فى المساء فالحرارة تهبط بضع درجات ولكنها لا تصل الى الحد المنعش ، فتتعشى ماريان مع بطرس فى الشرفة التى تطوقها الاسلاك الرفيعة بشبكة تمنع عنها الهوام ولا سيما الناموس . ومن جوف الظلام الحالك تترامى اليهما اصوات الجنادب فى الحديقة . وبين الحين والحين يأتيهما عن بعد صراخ ابن آوى ، فترتعد فرائص ماريان خوفا .. وبمجرد الانتهاء من تناول العشاء وانسحاب الخدم ، يضطجع الاثنان فى كراسى القش المنخفضة ويصغيان للاذاعات .. ففى بعض الليالى تذيع محطة بيروت برنامجا جيدا من الموسيقى الغربية. ولكنهما يهتمان فى الغالب بالاصغاء للأنباء وللاغانى الشرقية الغرامية التى تفيض اسى وشجنا .. ثم يأويان فى النهاية الى فراشهما ، لا ليخلدا للنوم — لأن الحرارة الخانقة لاتسمح بذلك — بل لمجرد الاستلقاء تحت المروحة الكبيرة المعلقة فى السقف والاسترسال فى احاديث متقطعة ، تفصلها فترات صمت طويلة .

وفى بعض هذه الاحاديث قد تثير ماريان ذكر الحياة السابقة فى (اللد) . وحين تصمت تفكر بينها وبين نفسها فى زوجة بطرس الأولى ، ويخامرها الفضول بصددها ، رغم ازدرائها

لهـا . اما بطرس فيطرق فى شرود ويفكر فيما عساها كانت تكون عليـه حياة ماريان لو انها لم تسمح لنفسها بالتورط فى زواجه . انها كانت حرية الآن ان تكون فى انجلترا مع ابويها ، متزوجة من رجل انجليزى يقاربها فى السن ، بدلا من الاضطجاع فوق هذا الفراش مع رجل مسن عليل ، تصطلى حرارة اريحا المحرقة تحت مستوى سطح البحر !

وعندما تلح عليه هـذه الافكار الحالكة ، كان يتحسس فى الظلام باحثا عن يدها ، كى ترتد اليه الطمأنينة عندما يتلقى على يده ضغطة الاستجابة من يدها .

وفى احدى تلك الليالى ، قال لها : « لماذا تزوجتنى يا عزيزتى المسكينة ماريان ؟ ماذا كسبت من وراء ذلك ؟ »

ـــ شيئين : انت وانطون !

ـــ زوج مسن وولد وحيد . وحتى البيت المناسب ضاع من يدك . ولم تبق لك الا (اريحا) على مدار السنة !

ـــ لطالما احببت (دار السلام) واحببت اريحا .

ـــ انك لم تذوقى عذابها فى أغسطس من قبل !

ـــ كل شىء يتعوده الانسان بالتدريج .

ـــ اعترفى على الأقل انك تتوقين لانجلترا منذ حللنا هنا !

ـــ لماذا تقول هذا ؟ انى لم اتشوق الى انجلترا ! بل تشوقت للد ول (دارة الخير) ! ولكن كان من الجائز ان نهلك فى البرية كما هلك كثيرون غيرنا . فالحمد للـــه اننا وصلنا سالمين الى هنا واجتمع شملنا ! آن الحر شديد فلا تجعلنى ابكى لكلامك هـــذا !

ثم تنفجر باكية فيخفف ذلك من توترها العصبى .

* * *

وفى اول ذكرى للخروج من اللد استولت على بطرس رغبة

محمومة فى السفر الى الحدود والنظر عبر السهل الساحلى الى البحر . وربما استطاع أن يقف فى موضع ما يبصر منه اللد نفسها . وفى هذه الحالة لا بد من تصريح من السلطات العسكرية . ولكن مثله لن يجد عناء شديدا فى الحصول على ذلك التصريح .

واستولى الأسى على ماريان عندما اخبرها برغبته فى طلب ذلك التصريح وقالت :

— كيف يمكن ان تتحمل منظر اللد من بعيد وانت عاجز عن دخولها ؟ سيكون وقع ذلك سيئا عليك .

— بالعكس . ان السجين يجد سلوى فى مشاهدة زوجته عندما تزوره من وراء القضبان ، مع أنه عاجز عن معانقتها !

— ولكن الانفعال سيكون قاسيا عليك !

— لن آخذك . سآخذ معى أنطون وسيتولى يوسف القيادة .

— لا أستطيع البقاء هنا وتركك تمضى مع انطون . وما دمت مصمما فسنذهب كلنا كما قطعنا كلنا تلك المسيرة عند الخروج . وأنا واثقة ان المسألة كلها خاطئة من اساسها !

— ليس بالنسبة لى ياعزيزتى . **ان هذه الرحلة لا غنى لى عنها . وانها اشبه بالذهاب الى الكنيسة فى عيد الميلاد أو عيد الفصح ! انها فرار مقدس . بل حج !**

— ١٦ —

أعدت الترتيبات للقيام بهذه الرحلة فى صباح السبت كى يتسنى لأنطون الاشتراك فيها . وانطلقوا بمجرد شروق الشمس مخترقين الوادى الى (رام الله) . وكان يوسف كارها للقيادة فى البرية فاقترح الذهاب عن طريق القدس ، على اعتبار أن الحالة الآن هادئة .. ولكن بطرس اعترض

بشدة ، لا خوفا من القناصة بل لأنه كان لا يطيق أن يرى المدينة المقدسة مقسومة ، وأن تكون بعض معالمها الحبيبة فى أيدى اليهود !

وتذكرت ماريان فى تلك الرحلة اسفارها القديمة . وتذكرت على الخصوص رحلة القدوم الى اريحا منذ سنة ، فى اول عهدهما بالهجرة . ووقع نظرها على مخيمات اللاجئين من البدو ، وحول خيامهم السوداء قطعان الماعز ، وبضعة جمال ترعى الشوك فى البرية ، وعجبت كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يعيشوا فى ارض خالية من الماء .

ووصلوا الى (رام الله) فى نحو الثامنة صباحا ، فاذا بالهواء المنعش محمل بعبير أشجار الصنوبر ، فراحا يملآن صدريهما فى سرور وكل منهما يرمق الآخر باسما . ولا شك ان يوسف لم يكن اقل منهما سرورا وهو يستنشق ذلك الهواء المنعش أمام عجلة القيادة . وكانت رام الله قد خلت تقريبا من اللاجئين الذين كانوا يبيتون على ارصفة شوارعها وفى ظلال زيتونها ، بعد ان قامت السلطات بترحيلهم الى معسكرات اقيمت على سفوح التلال .

وكان فريد وماجدة ونادية وانطون ووليد وبنات داود يتناولون جميعا الافطار فى الشرفة الكبيرة بالطابق الأول ، عندما وقفت سيارة بطرس منصور امام بوابة الحديقة ، ونفخ يوسف فى بوقها ، فنظر الجميع صوبها واسرع انطون يهبط السلالم ويخترق الحديقة لاستقبال ابويه .

وكان وليد موجودا لأن انطون الح على ابيه فى اصطحابه الى (بدرس) وهى قرية على الحدود تواجه (اللد) . وكان سرور وليد عظيما عندما سمح بطرس بك بذهابه معهم . والحقيقة انه استبشر بقيام آل منصور بتلك الرحلة لانها ستقوى من

شعور انطون بمأساة الاحتلال والتقسيم حين يقف على الحدود ويرى مسقط رأسه على مرمى البصر وهو عاجز عن الوصول اليه لأن الغاصبين يحتلونه !

ومكث آل بطرس منصور ساعة لتناول القهوة وتبادل الأخبار ومنها أن نصرى عين فى الفيلق العربى ، وان نادية ستضع طفلها الجديد — من زوجها — فى نهاية الشهر ، وسيحضر نصرى يومئذ فى اجازة . اما « منى » وخليل فكانا غائبين عن الدار فى زيارة لوالدى خليل فى (جنين) الواقعة فى الشمال . واعتذر فريد من عدم قبول الدعوة للانضمام الى المسافرين صوب (بدرس) لأنه بدأ مشروعا جديدا هو ادارة «جاراج» مع لاجىء فلسطينى آخر ، وعليه أن يعنى بأشياء كثيرة منها انه سينتقل مع ماجدة ونادية الى « شقة » فى وسط المدينة بالقرب من « الجاراج » بعد ولادة الطفل مباشرة .

واتفقت كلمة الجميع على أن بطرس يبدو منحرف الصحة ، وان ماريان يبدو عليها الاعياء ، وانهما يخطئان خطأ فادحا بالبقاء فى أريحا طوال الصيف ولهما بيت مفتوح لاستقبالهما فى رام الله . ولم يجب بطرس وماريان على ذلك كله بغير الابتسام والاعتذار .

وفى النهاية انطلق الركب صوب (نعلين) ، وأنطون يشرح لصديقه « وليد » معالم المسيرة التى قطعاها فى البرية مع عشرات الألوف من المهاجرين من (اللد) . وكيف أن الحظ وأتاهم فوصلوا سالمين لأن سيارة زوج عمته خليل داود حضرت لتقلهم من مسافة بعيدة . ولكن الوفا غيرهم هلكوا فى البرية !

وعند قرية (نعلين) طلب انطون من أبيه ان ينتظروا قليلا كى يرى صديقه « وليد » معالم المغامرات التعسة التى حدثت فيها منذ عام ، وكيف كان عشرات الألوف يتكالبون على نبع

الماء الوحيد ! .. أما بطرس وماريان فكانا ينظران الى هذه المواضع المثيرة للشجن ولا يتكلمان .

وبعد قليل استأنفت السياره مسيرها الى نقطة للمراقبة يحف بها نبات التين الشوكى ، فأبرز بطرس التصريح الذى يحمله ، وركب فى مؤخرة السيارة رجل من الحرس الوطنى ليصاحبهم حتى قريه (بدرس) * ، وبطرس جالس بجوار السائق قابضا بيديه على عصاه ومنحنيا الى الأمام مطبق الشفتين ، يحدق فى السهل الساحلى المترامى من تحته ، ذلك السهل الذى يفضى الى البحر . انه سهل فلسطين المحرم على الفلسطينيين !

وعلى جانبى الطريق كان الأطفال الحفاة العجاف يخرجون بعيون لامعة ليلوحوا بأيديهم للسيارة وليجروا وراءها . وعندما انتهى الطريق الوعر الى موضع لا يصلح لمسير السياره ، توقف يوسف ونظر الى سيده متسائلا . فقال له بطرس : « انتظر » .

ثم نزل ، تتبعه ماريان والصبيان وجندى الحرس الوطنى الذى قادهم الى مرتفع من الأرض على سفح التل ، وراء آخر بيت من بيوت القارية . وهناك وقفوا جميعا ينظرون الى السهل من تحتهم . وعلى مسافة قريبة ، وسط الضباب الذى تصعده الحرارة الشديدة ، قال لهم الجندى أن مدينة (اللد) تقبع هناك . ثم خلع نظارة الميدان من عنقه وسلمها لبطرس الذى شكره ووضعها على عينيه وراح يضبطها ، ثم جمد فى

---

* دمر اليهود بالقنابل تلك القرية الصغيرة بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ ، فى سنة ١٩٥٣ ، عندما هاجموا فى نفس الوقت قرية (قبية) القريبة منها ونسفوا بالديناميت ٤٢ بيتا على سكانها ! .. ومن فر منهم حصدوه بالرصاص ، فكانت مذبحة أشبه بمذبحة (دير ياسين) !

مكانه وركز حواسه كلها فى عينيـــه : **ها هى مآذن المســاجد وأبراج الكنائس وصهريج المـاء . ها هى المعـالم المألوفة فى المدينة الحبيبة . وبعد دقيقتين التفت الى ماريان ومد اليها يده بالمنظار وهو صامت ، ولكنها هزت رأسها .. فقال انطون فى لهفة بالغة : « أنا من فضلك يا ابى ! »**

فقــدم اليه أبوه المنظار ، ولم يلبث ان صاح الفتى : « كل شيء يبدو فى غاية الوضوح ! »

فقال بطرس بألم : « ما عدا بيتنـــا ! »

— ولكنى أرى بيوتا كثيرة غيره . واشــجار النخيــل فى الحدائق . أنظر يا وليـــد ! ها هى اللـــد ! وبيتنا هناك وفيه كل مقتنيـــاتنا . تصور !

وتناول وليـــد المنظار من أنطون . واعتمدت ماريان على ذراع زوجها وقد اشتد اضطرابها ، فربت على يدها بحنان ، وتراجعا صوب السيارة تاركين انطون يشرح لصاحبه «وليد» معالم بلده . أما هما فلم يتكلما وانما جلسا فى السيارة صامتين اذ لم يكن لديهما ما يقولان فى تلك اللحظة التى تفيض مرارة وألمـــا تعجز الألفـــاظ عن سبر غورهما ..

— ١٧ —

وبعد هذه الرحلة ساءت حالة قلب بطرس ، الذى عارض ماريان فى اســتدعاء طبيب من رام اللـــه — فهو لا يؤمن بالأطباء وحسبه ما لديه من عقاقير — وأبى ان يصغى لمـــا تكرره زوجته عن الأدوية المبتكرة لعـــلاج القلب . وهو على الخصوص لا يريـــد أن يعلم احـــد من اقاربه بمرضـــه حتى لا يحتشدوا حوله ويحملوه قسرا الى المستشفى الأمريكى .

انه يأبى أن يبارح (دار السلام) فى اريحا الا ليرقد فى منازل السلام رقدته الابدية بالقدس .

وخلال شهرى يوليه وأغسطس القائظين كان يمضى سحابة النهار فى شرفة الطابق الأرضى وأمامه بساتين البرتقال التى توهمه أوراقها الخضراء المتشابكة بأنها تلطف الحرارة بعض الشىء . ولم يصعد الى الطابق العلوى مرة واحدة بعد عودته من زيارة الحدود لأنه أصيب بنوبة قلبية عقب وصوله الى اريحا مباشرة . وكانت أسوأ نوبة اصابته حتى الآن .

ولم يكن يستطيع — وهو جالس فى الطابق الأرضى ، فى ظلال أشجار السرو — أن يرى معسكر اللاجئين ، على سفح التل الأجرد ، **ولكنه ليس بحاجة الى رؤية المعسكر كى يتذكر ألوف الرجال والنساء من المسنين والأطفال الذين ينتظرون هناك يوم العودة الى ديارهم واراضيهم ، وهم فى أسوأ حال ، يقتاتون بالنزر اليسير من الصدقات !**

وكانت أنباء الاذاعة والصحف تتحدث عن « لجنة فى الأمم المتحدة لرعاية أحوال اللاجئين الاقتصادية » .. ولكنه لا يثق باللجان الا بمقدار ما يثق بالأطباء ! وهو واثق أن اللجنة ستقترح مشروعات للعمل فى البلاد التى تستضيف اللاجئين ، متجاهلة أن الفلسطينيين لا يريدون الا شيئاً واحداً . وهذا الشىء الواحد هو : **العودة !**

وبالفعل تكونت فى ديسمبر وكالة للاغاثة والتشغيل لرعاية اللاجئين الفلسطينيين . ولكن بطرس منصور لم يبلغه هذا النبأ ، لأنه كان قد مات منذ ثلاثة شهور !

لقد وافاه الأجل فجأة فى أوائل اكتوبر بعد عيد ميلاد انطون الثالث عشر ، فى ساعة مبكرة من الصباح . وكانت ماريان قد غادرت الحجرة التى ينامان فيها لتستنشق

الهواء فى الشرفة ، عقب استيقاظها كعادتها كل يوم . وصافحت أنفها رائحة القهوة منبعثة من المطبخ . **وفجأة سمعت صرخة متحشرجة من ورائها ، فالتفتت لترى بطرس جالسا على حافة الفراش يحملق فيها ولا يستطيع ان يتكلم .. وقبل أن تصل الى المنضدة لتأتيه بالحبوب المسكنة كان قد سقط بثقله كله بين ذراعيها ، فصاحت :**

ــ انطون ! انطون !

وأسرع الصبى اليها ، ورأى وجه ابيه ، وادرك كل شىء !

* * *

وفى الليل رقد الفتى وأمه فى الظلام جنبا الى جنب . وتذكرت ماريان كيف كان بطرس يرقد هكذا ويمسك بيدها ويقول لها :

ــ عندما ينقضى أجلى لا تبقى هنا . اذهبى الى ابويك فى انجلترا . ولا بد لأنطون من الذهاب الى هناك عما قريب على كل حال . وسيتولى خليل اداره هذه الضيعة ، وسيكون لديك من المال ما يكفى لارسال انطون الى المدرسة . لن تكون لك حياة هنا من بعدى . أما انا فقد انتهت حياتى منذ غادرت البلد ..

لقد كان هذا حديثه أيضا اليها عشية الصباح الذى وافته فيه المنية فجأة .. وكانت هذه مشيئته .

انتهى القسم الأول من القصة ، ويليه القسم الثانى والأخير ، (وعنوانه : المنفى .. ثم العودة) ، ويصدر فى منتصف فبراير .